عبقرية الإمام

عباس محمود العقاد

طبعة جديدة منقحة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: عبقرية الإمام.
المؤلف: عباس محمود العقاد.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الثامنة - أكتوبر 2006م.
رقم الإيداع: 2003 / 10053
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2298-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه..

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار.. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم، أو فتيانا عولجوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لا يظن به التشيع، بل ظنت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفق من دماء الشهيد ... ين على ونجله شاهدان

فهما فى أواخر الليل فجرا ... ن، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية، وكثيرًا ما تتعطش إليها سرائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار. فهو الشجاع الذى نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.. ألم يحارب المردة فى فلواتها؟.. ألم يخلق له الرواة أندادا من

المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالون فى الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟.. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال.

وتلتقى سيرته - عليه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة؛ لأنه صاحب آراء فى التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الإسلامية، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه فى نتيجة العمل ومجرى الأمور.

وللذوق الأدبى - أو الذوق الفنى - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة؛ لأنه رضوان الله عليه كان أديبا بليغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذى يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين..

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحى العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان، وهى ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشبة أبدا على رأى من الآراء، أو حق من الحقوق، أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب فى سيرة هذا الإمام الأوحد التى لاتشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى».. أو حين قال: «يهلك فىَّ رجلان: محب مفرط بما ليس فىَّ ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتنى».

وصدق الإمام الكريم فى غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه.. ويَسْتتيبهم فيصرون على الكفر أى إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذى يعذب بالنار!..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم فى العقيدة ووافقوهم على السباب..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه فى تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء: يقول أناس: إله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله!..

وناحية أخرى من نواحى النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام فى أكثر من طريق: وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح..

فقد أصبح اسم على علمًا يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادى بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته؛ لأنه لم تقم له دولة فى حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفس الذى يستروح إليه كل مكظوم.. فمن نازع فى رأى، ففى اسم علىّ شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففى اسم على حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين على فى وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هى المزية التى انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون.

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر؛ لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو يئول بها إلى البساطة والوضوح، وكلما قلَت هذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحى سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها. فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة، وإن هذا لأسهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحاة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير.

لهذا نعلم غير مترددين فى علمنا أن واجبنا فى «عبقرية الإمام» مرسوم للغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطة الوسطى، وفى علمنا بهذا بعض التيسير، وإن لم يكن فيه كل التيسير، نرجع «بعبقرية الإمام» إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقا إلى بداية واحدة؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدى إليها أقرب أداء.. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله..

عباس محمود العقاد

١ صفـاتـه

المشهور عن على كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمى من أبوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين، وهى فى جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور فى سماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل: إن اسمه الذى اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك..

وكان على أصغر أبناء أبويه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين.

قيل: إن عقيلا كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبى طالب فى تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا عقيلا وخذوا من شئتم. فأخذ العباس طالبا وأخذ حمزة جعفراً وأخذ النبى عليه السلام عليًا كما هو مشهور. فعوضه إيثار النبى بالحب عن إيثار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيثار فى طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر فى نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود ألا يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج فى صباه.

وربما صح من أوصاف علىٍّ فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة؛ لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدق فهمها والتنبه لها على من كان فى مثل هذه السن

المبكرة. فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء..

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البنيان فى الشباب والكهولة، حافظًا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة: إنه كان رضى الله عنه ربعة أميل إلى القصر، آدم ـ أى أسمر ـ شديد الأدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها، ثقيل العينين فى دعج وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش[١] السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجا . وكان أبجر ـ أى كبير البطن ـ يميل إلى السمنة فى غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لا يلوى على شىء.

وتدل أخباره ـ كما تدل صفاته ـ على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدا إلا صرعه، ولم يبارز أحدا إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان.

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالى الحر والبرد، ولا يحفل الطوارئ الجوية فى صيف ولا شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف، وسئل فى ذلك فقال: «إن رسول الله ﷺ بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله: إنى أرمد العين. فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حرا، ولا بردا منذ يومئذ..».

* * *

(١) المشاس: رأس العظم.

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه: دخلت على عليَ بالخورنق وهو فى فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك؟.. فقال: والله ما أرزؤكم شيئا، وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء، إنما هى مناعة قوية خصت بها بنيته، لم يخص بها معظم الناس.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن وُد فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا فى الحديد ينادى جيش المسلمين: من يبارز.. فصاح على: أنا له يا نبىّ الله.. قال النبى وبه إشفاق عليه: إنه عمرو. اجلس. ثم عاد عمرو ينادى: ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلا: أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟.. أفلا تبرزون إلى رجلا؟.. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس. إنه عمرو، وهو يجيبه: وإن كان عمرا.. حتى أذن له فمشى إليه فرحا بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله: من أنت؟.. قال ولم يزد: أنا على. قال: ابن عبد مناف؟.. قال: ابن أبى طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخى.. مِن أعمامك مَن هو أسن، وإنى أكره أن أهريق دمك، فقال له على: لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك. فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل على الضربة بدرقته فقدها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه علىٌ على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعا وعلى يجأر بالتكبير.

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى على مصابه؛ لأنه أحجى المصائب، وأقلها معابة ألا يدفع. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته:

لـو كـان قـاتـل عـمـرو غير قـاتـلـه
بـكـيـتـه أبـدا مـا دمت فـى الأبـد

لـكـن قـاتـلـه مـن لا نـظير لـه
وكـان يـدعـى أبـوه بـيضـة الـبـلـد

* * *

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب..

ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهى التورع عن البغى، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغى، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تدعون إلى مبارزة. فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع»..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلونى. وسيفعلون!..».

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض: يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا إعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافرا ما أفقهه.. فوثب أتباعه ليقتلوه، فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه قال لعمرو بن ود: إنى لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب فى إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض

عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفرارى، وناشده: يا عمرو. إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما. قال: أجل. قال: فإنى أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال. قال: ولم يا بن أخى؟.. فوالله ما أحب أن أقتلك.. فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه فى موقف الساعة: فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصفين: من يبارز؟.. فخرج إليه رجل من أصحاب على فقتله ووقف عليه ونادى: من يبارز؟.. فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز؟.. فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟.. فأحجم الناس ورجع من كان فى الصف الأول إلى الصف الذى يليه، وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه، ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال مسمعا الصفوف: يا أيها الناس. إن الله عز وجل يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم.. ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان، فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا، وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشا.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت

أولادى. فلم يرد عليها شيئا، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها، قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحكم؟.. إنَا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟.. وإنه لفى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر القتال..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله، وأن يقتلوا أحدا غيره، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرًا عليه من معاوية وجنده؛ لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرِّين..

* * *

وتقترن بالشجاعة - ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم - صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التى نشير إليها، وهى صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته، وإن شابهته فى بعض الملامح والألوان.

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير إليه، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى صورة الاعتزاز، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله فى مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه.. مثله هنا كمثل العروض التى تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به فى غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس - بل لعلهم أوجبوا عليه - أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب فى جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهى أحب القصائد إلى القلوب.

* * *

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع أنها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد، فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان، فإذا هو الفخر والحماسة، وإذا هو عنوان الثقة والإقدام..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه.

وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها

الجفوة والخيلاء. قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر: إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء.. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله فى بنى غنيم، فرأى رسول الله عليًا على مقربة منه فضحك له وضحك علىٌّ يحييه. فقال الزبير: لا يدع ابن أبى طالب زهوه. قال رسول الله: إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم..

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التى يمتلئ بها الشجاع والثقة التى تتراءى مكشوفة فى صراحتها واستقامتها؛ لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها، ولأنه لا يقصدها ولا يتعمد إبداءها..

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يوما أن يعلم أنه شىء فى هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان فى العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبى عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه فى وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعلى أن يرتاع فى مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع، ولكنه كان عليا فى تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو فى الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك.. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده فى تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم..

علىٌّ هذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة، وقد علم، تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلىٌّ هذا هو الذى تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه ويحذره العاقبة التى حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبى: اجلس. إنه عمرو. فيقول: وإن كان عمرا.. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التى هو ممتلئ بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأى حين كان يقول: «اسألونى قبل أن تفقدونى، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضلّ مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رجالها».

ومن شواهدها أنه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق: «ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استن النبى ﷺ فاقتديته. فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما..».

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف، بل كان يقول: «شر الإخوان من تكلف له» ويقول: «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه»، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التى اؤتمن إليها. فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك.. إنما هى شجاعة الفارس بلوازمها التى لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموط المسىء ظنا بمن حوله يتراءى على سجيته فى غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاراه ألا يتكلف الإخفاء، فإذا التفت قاصدا إلى ما فى نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه، بل ينهى عنه ويشتد فى اجتنابه، ويوصى من أحب: «إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها»... «واعلم أنه الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب».

نعم كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شىء ولا يتكلف إخفاء شىء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل فى

الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

* * *

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه، وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلا يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟.. وكان يغفل الخضاب أحيانًا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساترا ما ستر، أو كاشفا ما كشف، من رأى وخليقة؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها.. أو هي قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلّما تفارقها، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ؛ لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها. وكان أبدا عند قوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل على علمك، وأن تتقى الله في حديث غيرك»..

* * *

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أميَّة التى

تبغض عليًا وتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب». وقال سفيان: «إن عليًا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التى يسكنها الفقراء، وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام.
وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: «دخلت على علىٍّ عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟.. فقال لى: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به»..

وعلى هذا الزهد الشديد كان علي رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك» وأنه قال لمن سألوه فى الاستخلاف: «ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين: على أو عثمان. فإن ولى عثمان فرجل فيه لين، وإن ولى علىّ ففيه دعابة، وأحرى به أن يحملهم على الطريق».

* * *

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها فى صلاح الإمام للخلافة، وإنما نقول: إن ابن العاص أغرق فى هذا الوصف، وإن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته؛ لأن تاريخ علىٍّ وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الإفراط فيه.. فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر ابن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن عليًا خلا من الشغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينا إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه.

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية. فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته، واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال.

والحق الذى لا مراء فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان.. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب..

إلى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف، ثم يفترق الناس فى رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشانئين المتحزبين، فيقول أناس: إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس: بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه فى الفطنة والسداد، وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال: «والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس»..

* * *

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله فى مواضعه من الفصول التالية مشفوعا بمناسباته، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملان ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل، وهما أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجح فى فض المشكلات من العمل برأى الإمام، وإن أحدا لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه. وكلتا الحقيقتين حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك.

هذه صفات تنتظم فى نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوى، وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شىء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.

٢ مفتـاح شخصـيتـه

«آداب الفروسية» هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هى تلك الآداب الى نلخصها فى كلمة واحدة وهى: النخوة..

وقد كانت النخوة طبعا فى علىٍّ فطر عليه، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات «الفروسية» العملية التى يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها؛ لأن للغلبة فى الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما، وتمنعه أن يعمل فى السر ما يزرى به فى العلانية.

وهكذا كان على رضى الله عنه فى جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء، فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط فى الشرف، والحق أنهما قائمان دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء، فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيرا وباء هو بالخسار.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه؛ لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصَّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص..

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة ـ أى مورد الماء ـ فى أيديهم.. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء، ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: ائت معاوية وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء،

والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له...».

ثم قال راوى الخبر ما معناه: إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين على وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة فى أمر الخلاف. فأنفذ معاوية مددا إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين المعسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة.. وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهموه، فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافا لأعدائه؛ لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبى وهو فى رأيهم حلال. قالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟.. فقال: «إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر» وسن لهم سنَّة الفروسية أو سنَّة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا إلى مال.

ومن الفرص التى أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء، فصدف بوجهه عنه آنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا يرضاها من منازله فى مجال صراع، ولو غير علىٍّ أتيح له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به، ولا جناح عليه.

* * *

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها.

فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال ولا ميتا ذهبت حياته ولو ذهبت فى سبيل حربه.. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه.

وهذه الفروسية هى التى بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «إنى أكره أن تكونوا سبَّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول. وأبلغ فى العذر. وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به».

وربما شذ عن سنّته هذه فى بعض الأحايين فإذا به لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان.. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها غضبه الذى طبع على إبدائه ولم يطبع على كتمانه.

ومن قبيل هذا كلمات قالها علىٌّ فى ابن العاص وفى معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء.. ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار.

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله: «عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين: حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفره مرة والإسلام أخرى. فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك، وإن امرأ ولى على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد».

* * *

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه، فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه: عجبا لابن النابغة!.. يزعم لأهل الشام أن فىَّ دعابة وأنى امرؤ تلعابة: أعانس[1] وأمارس.. لقد قال باطلا ونطق آثما. أما ـ وشر القول الكذب ـ إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويُسأل فيبخل، ويخون العهد ويقطع الآل[2]. فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها. فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته، أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت. وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة وأنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة[3].

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته، فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شىء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا إلى القول الباطل شىء آخر..

ولقد كانت للإمام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حينا وتبدو غريبة عنها حينا آخر فى عرف بعض الناقدين، ومنها التفقه والنزوع إلى «التصوف» واستنباط حقائق الأشياء.

* * *

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدروه.. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة؟.. أليس هو فى معدنه جهادا فى الحق أو جهادا فى الله؟.. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد؟.. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون؟..

فالإمام على رضى الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسية فقه الدين، بل هو أحرى أن يسلكه فيها، ولا يخرجه من الفروسية بعض المقال فى خصومه، بل هى بوادر الفرسان بعينها، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه.

---

(١) المعانسة: مضاربة الناس مزاحًا ومغازلة النساء.
(٢) الآل: القرابة والرحم.
(٣) الأتية: العطية، ومثلها الرضيخة مع قلة.

٣ إسـلامـه

ولد على فى داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد علىٌّ أن يولد مسلما..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام.

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبِرِّه، وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم، فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف: جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسُّه ابن أبى طالب ويأوى إليه..

واختلفوا فى سنِّه حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة، ولعله أسلم فى نحو العاشرة؛ لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية، وكان النبى عليه السلام يتعبد فى بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس ما يمنع عليا أن يألف تلك العبادة فى طفولته الباكرة فإذا هو نفر منها، وأعرض عنها لغير سبب فى تلك الطفولة الباكرة، فالعجيب أنه يعود إلى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التى يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد.

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذى دعى إليه، فقد أصرَّ كثير من أقرباء النبى على الشرك زمنا طويلا، منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه، فحارب المسلمين فى بدر ولم يسلم وقد وقع فى أسر النبى وصحبه.. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين..

* * *

على أن الألفة بين ابنى العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لإسلام علىٍّ فى طفولته الباكرة.. لأن النبى عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلا إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعوِّد الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو فى سبيل الهداية والخير، فظل هذا الحرج الكبير عائقا عسيرا أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطرار، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم.. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونَصَر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونَصره، فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله إقبالا لا تلجلج فيه على الدين الجديد.

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازع فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقابيله.. فبحق ما يقال: إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه.

كان المسلم حق المسلم فى عبادته، وفى علمه وعمله، وفى قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال: إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطباع..

كان عابدا يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه.. وكان يرى فى كهولته وكأنما جبهته ثفنة بعير من إدمان السجود وكان علىٌّ محجة فى الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لحشية، فكلما زينوا له الهوادة أبى «أن يداهن فى دينه ويعطى الدنية فى أمره» وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس..

وكان دينه له ولعدوه، بل له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه..

* * *

وجد درعه عند رجل نصرانى فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعى ولم أبع ولم أهب، فسأل

شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟.. قال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب!.. فالتفت شريح إلى عليٍّ يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟.. فضحك عليٌّ وقال: أصاب شريح. ما لي بينة!.. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و «أمير المؤمنين» ينظر إليه.. إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه!.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذ أسلمت فهي لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان.

وأحسن الإسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا، فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء..

غير أن المزية التي امتاز بها عليٌّ بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز عليٌّ بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

* * *

ويصح أن يقال: إن عليا، رضي الله عنه، أبو علم الكلام في الإسلام؛ لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة. فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ عليٍّ رضي الله عنه. وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليٍّ بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء.. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن

محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر إلى علىٍّ رضى الله عنه. وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على علىٍّ رضى الله عنه، وقيل لابن عباس: أين علمك من عمك؟.. فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط..

* * *

قال ابن أبى الحديد: «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو يزيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم، ويكفيك دلالة على ذلك: الخرقة التى هى شعارهم إلى اليوم، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام..».

وقد جمع «نهج البلاغة» نماذج شتى من الكلمات التى تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلا «للعلم الإلهى» أو لأسرار التصوف فى صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية. وربما وقع الشك فى نسبة بعض الكلمات إلى علىٍّ رضى الله عنه؛ لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لابد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده.. ولكن شيئا على هذا النهج لابد أن يكون قد صدر منه حقا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت به الأقوال، وأجمله ابن أبى الحديد فيما تقدم..

ولنا أن نقول: إنه كان رضى الله عنه يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصا فى عرفان إسلامه وتقرير إيمانه. فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ فى الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآنى الذى وعاه من أمر الكتاب بالنظر فى المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة فى الأرحام. فهو تلميذ ربه جلَّ وعلا فى قوله عن الخفاش: «من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حى، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها.. فسبحان من جعل

الليل لها نهارا ومعاشا. والنهار لها سكنا وقرارا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب.. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلاف غيره».

ومثله قوله عن الطاووس: «ومن أعجبها خلقا الطاووس الذى أقامه فى أحكم تعديل ونضد ألوانه فى أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مظلا على رأسه.. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون فى غير مكانه»..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الإمام علىٍّ رضى الله عنه؛ لأنه كان عهدا نبتت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعا من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب.. فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة فى الاجتهاد والنظر وعنوانا للنوازع التى تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التى قدمناها وإن لم تكن هى إياها بالنص والتفصيل..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام على سجيته مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى أمور، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال: «.. اعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به إلىَّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر.. فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات، وابتدئ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك، والرغبة إليه فى توفيقك، وترك كل

شائبة أولجتك فى شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك فى ذلك همًّا واحدًا، فانظر فيما فسَّرت لك..».

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام علىٍّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه.. فإنما هو إسلام المسلم «المطبوع» الذى يبتكر دينه؛ لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه، وإنما هو إسلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنَّة النساك وتمحيص الفكر على سنَّة العلماء، وإنما هو إسلام الرجل الذى أتيح له أن يتتلمذ لربِّه ويتربى فى حجر نبيِّه ويصبح إماما للمقتدين من بعده..

* * *

٤ عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى فى عصر «على» ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله، ولم تكن فى حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التى أريقت فى حروبها..

فعصر أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية.

وعصر عمر كان هو العصر الذى تمَّ فيه إنشاؤها..

وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الإسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة. فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة، وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها..

أما عصر علىٍّ فكان عصرًا عجيبًا بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه أو هو لم يكن عجيبا؛ لأنه جرى على النحو الذى ينبغى أن يجرى عليه، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب؛ لأنه كان بناء جديدا فى سبيل التمام، ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار، ولا بناء قائما مفروغا منه فكله رسوخ واستقرار.

غير أن العجيب فيه حقا أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين: فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقائه وتدعيمه، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله.

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعى، كان قسم معاوية بن أبى سفيان فى الشام وما جاورها.

والآخر، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعى، كان قسم على بن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها.

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضا أموية فى عهد الجاهلية فلجأ إليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة، وقصد إليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية.

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر، فلم يزل مقيما على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة علىٍّ بالخلافة بعد مقتل عثمان، فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله، ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها، فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد، بل كان يرضى كل من وسعه إرضاؤه، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه.. ومنهم عقيل أخو على بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار.

أراد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول: «إن أخى خير لى فى دينى، ومعاوية خير لى فى دنياى» وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن علىٍّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء.

قد همه إرضاء السواد والعامة، كما همه إرضاء الشرفاء وذوى الأخطار.. «وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين. فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتى أخذت منى بصفين فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته.. فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفى: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة. فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه، وقال له: «أبلغ عليًا أنى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!».

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها[1].

فإن كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها، وليست مبالغة الخلق والافتراء.

وما هى إلا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال.

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد، والإخلال بالنظام، كما نسميه فى هذه الأيام..

فما سمعت قط صيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكنها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام. فمن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه، ومن كان من أهل الجد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه.

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير، وطفق يطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل الله، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره: «وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم».

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبى ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدى المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه، ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسوله الذى حمل إليه الدنانير يقول له: «أنقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك فأخطأت بك. فقال له: يا بنى، قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار.. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها».. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة، وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الإذن بنفى أبى ذر من الشام إلى

(١) مروج الذهب السعودى: الجزء الثانى.

المدينة، ثم ضاقت به المدينة أيضًا فنفى منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء.

* * *

وصنع بعبد الله بن سبأ - صاحب القول برجعة النبى إلى الدنيا ووصاية علىٍّ على الخلافة - مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه، فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيَّق عليه ثم أقصاه..

والتفت إلى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل فكتب فى أمورهم إلى الخليفة يقول: «إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم، وليسوا بالذين ينكون أحدا إلا مع غيرهم..».

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحا منهم بالنفى والإقصاء، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هى التى ينبغى لها أن تستريح.

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة على وفيها أعظم ما يأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان..

* * *

أما على فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية فى حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس، فأوشكت أن تنعدم فيها دواعى الرضا والاستدامة، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء. حتى ضاق به المقام فى الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى «المستجير من الرمضاء بالنار».

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة، وهى حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا فى إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة: «إنما السواد بستان لقريش!»..

وظهر هذا السخط من أثرة قريش فى خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين على وأنصاره، فقام فى الجمع رجل من عبد القيس يقول:

«يا معشر المهاجرين!.. أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل..» إلى أن قال يشير إلى خلافة أبى بكر: «ولم تستأمرونا فى شىء من ذلك فجعل الله للمسلمين فى إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك. فرضينا وسلمنا. فلما توفى جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله؟»..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه فى صدر مقاله، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به فى معرض الخصومة؟.. ولعل النافثين بهذا الغيظ كانوا يثوبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء والاعتراف لهم بالحق فى دعواهم، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغمين، فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه. ثم وثبوا عليه فى الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين.

* * *

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف، ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى

والأعراب المحرومين. فلما طولب عليٌ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال: «.. كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟».

وقالت السيدة عائشة، رضى الله عنها: «أيها الناس!.. إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم..».

* * *

وكان مع عليٍ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون فى الحواضر والبوادى، ولا يزالون كأنبياء بنى إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلاف ولو يسير فى إقامة أحكام الدين، لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنَّة كما يعتقدونها. وطالما وقفوا بين عليٍ وبين القتال؛ لأنهم لا يستجيزونه، أو عن الصلح والتحكم؛ لأنهم يجلُون القرآن عن قبوله.. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل؛ لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوه؛ لأنهم خرجوا فى الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون فى جماعة. وهم أقرب الناس فى ذلك العهد إلى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير، والإصغاء إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير.

واجتمع مع على فى الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها. فمنهم من كان يقول لعلى: نبايعك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا باسم عثمان، تمحلا لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور..

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها، ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا:

«.. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله»..

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب. وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف: «ورأيتم الدنيا قد أقبلت.. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربى[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان».

* * *

روى المسعودى أنه «فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع. وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية.. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها

(١) منسوب إلى أذربيجان.

مجصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم».

* * *

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة علىٍّ من الدولة الإسلامية عنصرًا من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة، خلافًا لأمثالهم فى معسكر معاوية.

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على التخصيص، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود فى مجتمع علىٍّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور وفى الثورة بفعل محسوس؛ لأنهم عرفوا عليًا من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد.

عرفوا مذهبه فى حساب الولاية ومذهبه فى حساب الخلافة، فلما كان واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة وقال لهم: إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، ثم لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف إلى الحج. وشاعت هذه القصة؛ لأن أناسا شكوه إلى رسول الله ﷺ، فأنكر شكواهم منه وقال: «لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله».

* * *

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علىٍّ عليه؛ لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه، ولقى بالعتاب كل صحابى من إخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء.

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه.

ولم يكن فى وسع علىٍّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره؛ لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار

المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت عليًا بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه.

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار.

وكل أولئك كانوا فى حصة علىٍّ من الدولة الإسلامية، ولم يكن لمعاوية فى حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر، بل كان له فى موضع كل واحدة منها دعامة تمكين وتأييد.

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف إليها.

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التى اصطلحت على حصة علىٍّ من الدولة الإسلامية.. فقد أضيفت إليها علة أخرى، بل أضيفت إليها أكثر العلل التى تبتلى بها دولة أو حكومة، وهى اعتمادها فى مواردها على غيرها..

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة. أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت فى طاعته وجنحت إلى القائم بالأمر فيه. وكانت مصر والسواد من حصة على، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها، ولم يستفد بالسواد كثيرا لتعاقب الفتن والغارات عليها.. وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة..

* * *

وينبغى أن نذكر أن الحيلة فى هذا التقسيم قليلة، وأن الحوادث هى التى اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها و«كما تكونوا يول عليكم».. ولا محل فى هذه القاعدة لحيلة أو اختيار..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية، ولم يكن أحد أشبه من علىٍّ بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها إلى التغيير.

إن شكا أناس غلبة قريش، فعليٌّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه، ويقول فى كتاب من كتبه إلى أخيه: «.. ودع عنك قريشا وتركاضهم فى الضلال وتحولهم إلى الشقاق، فإن قريشا قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم..».

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفاظ والقراء والنساك فعليٌّ كان إمام أهل العلم والقراءة، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير.

وإن جاءت من ضيم الفقراء فعليٌّ فقير، أو من تهافت الولاة على المال فعليٌّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل إليه..

فما شكا شاكٍ قط إلا وعليٌّ له فى شكواه، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير؟.. وأية حيلة له إلى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير؟

* * *

كان عليٌّ نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى. وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بإرادة مُريد.

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا، وما لم نذكر أبدا أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه، وأن الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه!..

* * *

٥ البيعة

بويع لعليٍّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية فى تاريخ الإسلام، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان فى شيخوخته الواهنة. بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام..

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة، أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد فى اتقائه؛ لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه.. فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذى فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين، فمن الأعمال المؤسفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى فى عهد خليفة..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها، وإن ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الأسباب التى أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى، ولكنها قد تنحصر فى سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة، وهما إمعان الخليفة فى الشيخوخة، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع.

ولقد كتبت الأسفار المطولات فى إحصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه، وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه؛ لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية، وانتقلت إلى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج.. فجعلها الشيعيون وأهل السنَّة ذريعة إلى تأييد مذهب وإنكار مذهب

فى الخلافة والخلفاء، وراح الأولون يبالغون فى الاتهام كما يبالغ الآخرون فى الدفاع، ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن.. وإنما المرجع فيه إلى تاريخ عثمان..

إلا أننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذى أثار الفتنة، والإلمام بأسبابه عند أصحابه.. فمما لا شك فيه أنهم تذمروا لأسباب تثيرهم وإن طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة، وأنه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة.. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران. وأنه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال، وأنه توسع فى بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيجاع..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائمًا فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة، وإضافة الأوهام إلى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء.

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة، أن الناس تألبوا على الخليفة مرة.. فأرسل فى طلب عليٍّ ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه استأذنه فى إعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال، فأذن له.. فانصرفوا عن زعماء الفتنة، وهدءوا إلى حين..

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين.. وتولى زعامة المتذمرين فى بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة.. فلما حملها عمار بن ياسر إليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له: «إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس.. وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه» فضربوه حتى غشى عليه.

وفى مرات أخرى، كان الخليفة يصغى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم فى أعمالهم بمن يرضى المسلمين، ويرضى الله.

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته، فيبقيهم حيث كانوا ويملى لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم.. أبغض أولئك الأعوان إلى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين.

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم، فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف.. فيعود المضروبون إلى الشكوى، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسىء إليهم. فإذا توجه الوالى الجديد إلى مكانه، إذا فى الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول، يأمره فيه بقتل من يفد إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية. ويقره فى مكانه!

حدث هذا مع وفد مصر، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة، ومتهم لمنافسيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب، ومتهم لمروان بن الحكم - عنصر السوء فى هذه المأساة كلها - وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق، إذ كان أيسر شىء على مروان لو كان بريئًا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب، وفى كشف هذه الحقيقة إبراء له، وتعزيز لسلطان الخليفة، وفضيحة لأعدائه، وإدحاض لحجة الفتنة، ودعوة الإثارة والتحريض.. ولكنه أهمل السؤال، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه..

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون.. لا هم فى حرب، ولا هم فى سلام..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر، زاد الخليفة ضعفا، وزاد الثوار ضراوة، وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله..

وتوسط على بين الخليفة والثوار، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين.

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة على... ومنهم من يسيء الظن، ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم فى انتظار المدد الذى طلبه من الأمصار..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى..

وتفاقمت الفتنة، وأحاط الثائرون ببيت عثمان.. لا يقنعون فى هذه الكرة إلا أن يعتزل، أو يسلمهم مروان بن الحكم، أو يعزلوه عنوة.

وجاء فى رواية «شداد بن أوس» أن عليًا رضى الله عنه، خرج من منزله يومئذ معتمًا بعمامة رسول الله متقلدًا سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه علىٌّ.. وقال بعد تمهيد وجيز: «.. لا أرى القوم إلا قاتليك، فمرنا فلنقاتل». فقال الخليفة: «أنشد الله رجلا رأى لله حقًا، وأقر أن لى عليه حقا، أن يهريق فى سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى» فأعاد علىٌّ القول، فأعاد عليه هذا الجواب.. ثم خرج من عنده إلى المسجد. وحضرت الصلاة فنادوه: «يا أبا الحسن. تقدم فصل بالناس» فقال: «لا أصلى بكم والإمام محصور، ولكنى أصلى وحدى»، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة فى حراسة دار الخليفة؛ ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء.. عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه.

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه.

* * *

وللإفاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل، مكان غير هذا المكان، وكتاب غير هذا الكتاب..

فإنما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه علىّ من هذه الجريمة، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره.. وإنما يعنينا هنا أن نسأل: أكان عليه وزر فى هذه الجريمة؟.. أكان فى مقدوره عمل صالح يعمله لإنقاذ عثمان من هذا المصير؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع فى جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين.. فقد سال فى الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذى لا ريًّ فيه.

ليس علينا هذا؛ لأننا نستطيع أن نعبره إلى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها، وفيها الغنى - ولو بعض الغنى - عن الإسهاب فى السؤال والجواب..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الريب، أن عليًا رضى الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه.

فقد كان معاوية واليًا عزيزًا، له جند يرسله إلى الخليفة فيحميه فى الشدة اللازمة وإن أباه، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلىٍّ ولا لأحد من خلصائه، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أوالشام، لو أراد.

وكان فى وسع عثمان أن يرحل إلى مكة، وهى آمن له من المدينة، أو يرحل إلى الشام، وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار فى العصيان..

أما على فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل فى تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس.. كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقدًا لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب رعاياه.. ناصحا للخليفة بإقصاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التى تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها.

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث، كلما هجم الثوار على تلك البطانة، وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعى فى الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار.

ولم يكن فى العالم الإسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وضاعف هذا الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الرأى والعمل بالمشورة. وإنما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين إليه.. لا ينجو من إحدى جناياته التى كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع فى روعه أن عليًا وإخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه، وإنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم.. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه..

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشاور فى إصلاح الأمر وقمع الفتنة، لم يكن علىٌّ مدعوًا ولا منظورًا إليه بعين الثقة والمودة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه.. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، وهم فى جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم علىّ وجمهرة الصحابة، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

قال لهم عثمان: «إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلىّ أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون.. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علىّ»..

قال معاوية: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك ما قبلى».

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات فى غير مصره..

وقال عبد الله بن عامر: «رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمهرهم فى المغازى حتى يدلوا لك.. فلا تكون همة أحدهم إلا نفسه..».

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهادًا تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب.

وقال عبد الله بن سعد: «أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم».

رأى رجل يشترى الرضا بالرشوة، ويستبقى ما فى يديه منها.

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع فى ولاية يرجوها: «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعدل.. فإن أبيت، فاعتزم أن تعتزل.. فإن أبيت، فاعتزم وامض قدما»..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار، ولهذا بقى حتى تفرق المجتمعون.. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره: «والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز علىَّ من ذلك.. ولكنى قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى.. فأقود إليك خيرًا وأدفع عنك شرًا..».

* * *

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان ابن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وفى مقدمتهم علىٌّ وإخوانه.. ثم تفرَّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله، وأمره بالتضييق على من قبله..

فكانت حيلة علىٍّ فى تلك المعضلة العصيبة جد قليلة، وكان الحول الذى فى يديه أقل من الحيلة.

غير أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين، معصوب بالتبعتين، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة، يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه.. فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين فى الأرض.

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة، ودليل التهمة التى يتهمون بها بطانة عثمان فى أيديهم.. جاءوه بالخطاب الذى وجدوه فى طريق مصر مع غلام عثمان، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيرًا وأجابهم إلى تولية العامل الذى يرضيهم، فلم تخدعه حجتهم الناهضة، ولم يشأ أن يملى لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه، وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين، فقال لهم: «وما الذى جمعكم فى طريق واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة؟»..

* * *

وكانت حيرة علىٍّ بين التقريب والإبعاد، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار.. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه، ويستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة، فلما تكرر ذلك، قال لابن عباس الذى حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله فى ينبع: «يا ابن عباس.. ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملاً ناضحًا بالغرب ـ أى الدلو ـ أقبل وأدبر.. بعث إلىَّ أن أخرج، ثم بعث إلىَّ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلىَّ أن أخرج.. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثمًا»..

ثم بلغ السيل الزبى، كما قال عثمان رضى الله عنه، فكتب إلى علىٍّ يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره.. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمى، وطمع فىَّ من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزق

فعاد على، وجهد فى إنقاذ الخليفة جهده، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه.. فكلهم يريد تغييرًا يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين، ولا يغير شيئًا من عمله أو مستطاعه، ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه..

وعد الخليفة وعده الأخير.. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال.

وأحاطت به بطانته كدأبها فى أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه.

وكانت المرأة أصدق نظرا من الرجال فى هذه الغاشية التى تضل فيها العقول.. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علىٍّ والإعراض عن هذه البطانة، ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأى بعد سماعه من امرأة ضعيفة، فكان مروان يقول له: «والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها»..

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار.. كما قال لهم يومًا: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب، شاهت الوجوه.. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا.. ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا».

إذن بطلت الروية، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ، ولا يؤتى لأحد إذا هى بدأت أن يقف دون منتهاها.

* * *

هجم الثوار على باب الخليفة، فمنعهم الحسن بن علىٍّ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة..

واجتلدوا فمنعهم عثمان، وقال لهم: «أنتم فى حلٍّ من نصرتى» وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله.. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل، فرماه كثير بن الصلت الكندى بسهم فقتله، فجنَّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان، وعثمان فيأبى أن يسلمه ويقول لهم: «لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى..» وعزَّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه، فاقتحموا الدار من الدور التى حولها.. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير.

لو لم تقع الواقعة فى هذه اللحظة الطائشة، لوقعت فى لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هى الأخرى.. فإنما هى بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل

مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى، ومدافعين لا يضبطهم عنان..

ونقل الخبر إلى المسجد، وفيه علىّ جالس فى نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر القادم وسأله: «ويحك ما وراءك؟» قال: «والله قد فرغ من الرجل» فصاح به: «تبًا لكم آخر الدهر..» وأسرع إلى دار الخليفة المقتول.. فلطم الحسن، وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: «كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة: «لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل».

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقى بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على علىٍّ وهو يهرب إلى الحيطان[1]، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة. فمضوا إلى سعد بن أبى وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى. فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا فى أمرهم. ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم.. فرجعوا إلى علىٍّ فألحوا عليه، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس.. وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا على، فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء. فقال قائل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ثم الزبير، ثم قال الزبير: «إنما بايعت عليًا واللج على عنقى والسلام..»».

وهذا الخبر على وجازته، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان.. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير، اللذان أعلنا الحرب على علىٍّ بعد ذلك.. فقد كانا يمهدان لها فى حياة عثمان، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمى، وأن علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة إلى

(١) البساتين.

واحد من هذين.. أو إلى عبد الله بن الزبير؛ لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء، وفى تأييد السيدة عائشة لواحد منهما مدعاة أمل كبير فى النجاح..

على أن الرأى هنا لم يكن رأى قريش، ولا رأى بنى هاشم.. فلو أن عثمان مات حتف أنفه، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير على بن أبى طالب، وجاز أن يختلف بنو هاشم.. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة، وهم: عقيل، وعلى، وابن عباس.

* * *

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تنشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه.. فإن ترددت أياما، فذاك هو التردد العارض الذى يرد على الخاطر لا محالة، قبل التوافق على رأى جازم.. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه إليه وحده على الرغم منها.

فطلحة والزبير، كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتحرجون فى الدين، وتمرد له الفقراء المحرومون.. كانا يخوضان فى المال، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنَّة الناقمين المتزمتين، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم.. فما هم بواجديه فى غير على بن أبى طالب، وقد قال بحق: «إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر» ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون فى الخلافة مقالته عن العامة فى انقيادهم إليه بغير رهبة ولا رغبة.. فقد كان أولئك الخاصة جميعًا على رأى العامة فى حكومة عثمان وبطانته، وإن أخفى بعضهم لومه.. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق وسفك الدماء..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة على رضى الله عنه.. فإذا هى فهمت على وجهها، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر.. وإذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول، والموازين كلها منقوصة سواء فى تقدير الرجال أو تقدير الأعمال، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ.. ولا خطأ عنده يصححه غيره فى موضعه، وإنما هو حكم الموقف الذى

لا محيد عنه. وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم؛ لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد.. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافاً بغير تفكير..

* * *

فلم تكن المسألة خلافا بين على ومعاوية على شيء واحد، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك.

ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين: أحدهما يتمرد ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار..

أو هى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى على بن أبى طالب، والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان.

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على.. فيحكم فى مكان معاوية، أو ينتصر معاوية فيحكم فى مكان على، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منهما على خصمه؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية؟.. أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان؟

فلو أن عليًا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز، وجرى فى سياستها على سنَّة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والإسراف لبقيت المشكلة حيث كانت، ولم تغن هزيمة معاوية إلا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل معاوية.

ولو أن معاوية ملك المدينة إلى جانب ملكه، وجرى فى سياستها على سنَّة الحفاظ والقراء لما أرضاهم، ولا انقاد له أحد من أشياعه..

فالحسم حق الحسم هنا، إنما هو تغليب مبادئ الخلافة ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية فى علاج الأمر على غير هذا الوجه، لو جهد له جهد الطاقة..

* * *

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسًا متشابكًا فى عهد عثمان كان نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دنيوية..

فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما، وأن يزول الالتباس عن فلق صريح..

ووجب وقد زال الالتباس، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان، أن يبلغ الخلاف مداه.. ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين، وليس لعلي أو معاوية على التخصيص.

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة..

وخليق بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يظهر صاحبها غير ما يبطن، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه..

خذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليٍّ ليطلبوه بدم عثمان، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع عليٌّ عنه. وقد كان عثمان كثيراً ما يقول: «ويلي من طلحة.. أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمي.. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه»..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمي الدار، ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول.

وخذ لذلك مثلا حجة معاوية حين علل ثورته باتهام عليٍّ في دم عثمان، وعلل اتهامه لعليٍّ بتقصيره في القود من الثائرين.. وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين، فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال؟ إنه اتبع علياً فيما صنع، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهي تبكي: «وا أبتاه» فلم تزده هذه الصيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإغفاء، وقال لها يعزيها: «يا ابنة أخي.. إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره.. فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين..».

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين.. ولكان عذر على فى بداية المحنة أعظم حجة، وأحق بالقبول..

* * *

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال، بل كان يخطب عثمان ليسترضى الناس، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد: «اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك.. فتب إلى الله نتب..» ثم ترك عثمان فى المدينة بين المؤتمرين به ومضى إلى فلسطين، وسمع وهو يقول: «والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان».

فكل علة للثورة على خلافة على، فهى تعلل موضوع ينخدع به قائله أو ينخدع به غيره.. إلا تلك العلة التى طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافيها وصريحها ومكذوبها، وهى الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين.. وإن كان فى ظاهره فصلا بين رجلين..

فلما بويع علىٌ بالخلافة، كانت هذه البيعة إيذانا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير، أو كانت إيذانا باصطفاف المتسابقين إلى غاية لابد من بلوغها.. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام الاجتماعى الجديد.

فأما انتهاء الملك فى بدايته، فقد كان بعيداً - بل كان عسيراً جداً فى تلك الآونة - كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذى كان، وهو الذى كان منظوراً أن يكون، ولن يكون غيره بمنظور.. فمن الفضول لوم علىٍ على شىء من الأشياء التى أفضت إلى هذه الخاتمة، وهى محتومة ليس عنها محيد..

إذ لم يكن طبيعياً أن يصمد الناس على سنَّة النبوة أكثر من جيل واحد، تثوب بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى، وقد يتفق كثيرا أن يغمرها جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية، وهى فى إبان النضال والحمية الدينية، فتنسى المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة

الإنسانية، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الإنسانية بعد حين، وتفتر عن النهوض من قمة إلى قمة.. فتركن آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لاحافز ولامستنهض، إلا مجاراة الطبيعة فى مجاريها التى لا تشق عليها، وإن المصلحين ليرضون غاية الرضا إذا هى حفظت من إصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء، ويردعها بعد جماع مريد، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقا بغير عنان..

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب إلى هذا المصير فقال: «الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك الملك».. وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء، وكأنما ينظر إلى ذلك بعينيه صلوات الله عليه.

* * *

واتبع علىٌّ من اليوم الأول فى خلافته أحسن السياسات التى كان له أن يتبعها، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته فى صدق الرأى وأمان العاقبة، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المآزق التى ساقته الحوادث إليها.

فمن اللحظة الأولى، أخذ فى تجنيد قوى الخلافة الدينية التى لاقوة له بغيرها..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين..

ورد القطائع التى وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف والمساواة.

ورجع إلى خطة أبى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات، مخافة عليهم من غوايتها وإبعادًا لهم من دسائس الشيع والعصبيات.. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن، قال لهما: «بل تبقيان معى لآنس بكما» وسأل ابن عباس: «ما ترى؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة. قال على: «ويحك.. إن العراقين بهما الرجال والأموال.. ومتى تملكا رقاب

الناس يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية كان لى فيهما رأى».

نعم، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبى المنفعة الدنيوية على يديه.. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده. وكانت تخالف عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس إليه، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه.. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال، فإن لم يكن خليفة فما هو بشىء، وإن كان خليفة وملكا فهى خطة عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف، وإن كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد.

وعلم أن قريشا لا ينصرونه، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة.. لأن قريشا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته، وقد تركه أقربهم إليه ورحل إلى معاوية طمعا فى رفده، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته، أو من تيم وهم حزب طلحة، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب، أو من قبائل أخرى، وهم كما قال: «قد هربوا إلى الأثرة».. فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء..

* * *

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه.. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة.. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ماطمعوا فيه..

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير..

فحشدوا جموعهم إلى البصرة، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة.. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من

قبل عثمان، ولما يزل قائما بالخلافة، فقالت له: يا بن عباس.. أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا - أي ماضيا - أن تخذل عن هذا الرجل - تعني عثمان - وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح.. فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه» فأجابها ابن عباس: «ياأمه! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا» أي علي فقالت: «إيهًا عنك.. إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك».

فلما بويع عليّ في المدينة. لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه.. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطليقها، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان، وكانت هنالك وقعة الجمل التي سُمِّيت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها.. فانتصر عليٌّ، وقُتل الزبير، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق..

على أن هذا النصر العاجل، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها عليّ في حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير.. وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والمتذمرين.. فإنهم يستحمسون في عقيدتهم، وهي فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية..

فقد كان عليّ يميل - كدأبه - إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة، وكان معه جماعة السبئية - أتباع عبد الله بن سبأ - وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لاهوادة فيها.. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب، قبل أن يفرغ عليٌّ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه..

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التى أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين فى جيشه، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعثرة التى لا تقال..

وكان ذلك فى وقعة صفين..

فإنه نظر بعد غلبته فى العراق، فلم يجد أمامه خصما يقف فى طريق الخلافة إلاجيش معاوية بالشام، فعمد معه إلى خطته التى جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالإقناع.. فطالت المراسلة منه إلى معاوية، ومن معاوية إليه، وفى مثل واحد منها، ما يغنى عن كثير..

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة.. «سلام عليك.. أما بعد، فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مابويعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسمَّوه إماما كان ذلك لله رضى، وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ماتولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلىَّ قبولك العافية، وقد أكثرت فى قتلة عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون.. ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التى تريدها – يعنى الخلافة – فهى خدعة الصبى عن اللبن. ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنك من الطلقاء[1] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة.. فبايعه، ولا قوة إلا بالله».

فرد عليه معاوية بما يلى:

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة.

«سلام عليك.. أما بعد، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان. ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان.. فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجُتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أبايعك أنا. فأما فضلك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه»..

ومن رد معاوية هذا، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخلاف واحدا بعد واحد.. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح، لا ينتهى الخلاف بإغلاقه.

فتسليم قتلة عثمان لا يكفى، لأن عليًا نفسه متهم بالإغراء والتخذيل، وبراءة علىٍّ من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر فى البيعة من جديد..

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس.. لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره..

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول فى الصدور.

وزحف علىٌّ من الكوفة إلى صفين، ووجد جيش معاوية على الماء.. فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال..

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فزعة.. وتصاولوا فى وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا، وقلما اشتبك فيها الجيشان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه همَّ بالفرار.. وإذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام، وإذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح.. فإن عليًا نظر حوله، فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعا على القتال أو إلقاء السلاح، وإن معاوية لفى غنى عن كفاح قوم

لا يتفقون على كفاحه.. فله منهم سيوف مشروعة لنصرته، شاءوا أو لم يشاءوا، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه، وهيهات!

* * *

ولو كانت آفة الطاعة فى جيش علىٍّ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ، وتعجل الغلاة والمتمردين.. لكان فى ذلك وحده ما يكفى لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله.. إذ لا يستغنى القائد فى ميدان الحرب، ولا فى ميدان السياسة، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات.. فإذا كان فى كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة فى كل حركة من حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ. وليس عجيبا بعد ذلك، أن ينهزم فى ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل.. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن ـ وإن قصرت ـ أمام جيش يفوقه فى العدد ويرجع فى أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة..

ولكن الآفة مع هذا، لم تكن كلها فى اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة.. بل كان فى الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره.. فإن لم يكونوا كذلك، فالأمر الذى لاشك فيه أنهم كانوا يعملون ـ وهم عامدون وغير عامدين ـ شر ما يعمله الخائن الخبيث الذى يتحين الفرص للعناد والشقاق، وإفشاء الخلل والخذلان فى أحرج الأوقات.

وأدهى من ذلك، أنه لم يكن قادرا على زجرهم والتنكيل بهم.. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة، وليس لك بيِّنة قاطعة عليه.

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبا على حزب، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه..

طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبى عليه السلام، فدعا قومه أن يتوجوه.. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه أياما، ويئس من الغلبة

فاستسلم.. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبى بكر رضى الله عنه، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة. فلما نشبت الفتنة بين علىٍّ ومعاوية، كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة.

ثم زحف علىٌّ رضى الله عنه إلى صفين، فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء، وجاء علياً يقول: «ياأمير المؤمنين! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا؟.. ولِّنى الزحف إليه.. فوالله لا أرجع أو أموت»

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد أن وضح النصر فى ليلة الهرير، فخطب فى قومه من كندة قائلا:

«... قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فيه من العرب.. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط.. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن تواقفنا غدا إذن لفنيت العرب وضيعت الحرمات.. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنينا»..

ثم ذهب إلى علىٍّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف، فقال له: «ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن.. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل».

ولقى معاوية فسأله: «يامعاوية... لأى شىء رفعتم هذه المصاحف؟».

قال: «لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه.. تبعثون منكم رجلا ترضون به، ونبعث منا رجلا، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه.. ثم نتبع ما اتفقا عليه».

فقال الأشعث: «هذا الحق!».

وعاد إلى علىٍّ ينادى بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن علىٍّ، وعلىٌّ لا يرضاه..

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا على أمير المؤمنين، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيئ منذرين متوعدين:

«ياعلى! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان. إنه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه.. والله لتفعلنَّها أو لنفعلنَّها بك».

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب، وإلا اعتزلوه أو قتلوه..

فقبل التحكيم وهو كاره..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فقال الأشعث: «فإنا رضينا بأبى موسى الأشعرى»

قال على: «إنه ليس لى بثقة.. قد فارقنى وخذل الناس عنى، ثم هرب منى حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك».

قالوا: «لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر..»

قال: «فإنى أجعل الأشتر»

قال الأشعث ـ وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل ـ: «وهل سعر الأرض غير الأشتر؟.. أو قال: وهل نحن إلا فى حكم الأشتر!»..

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال: «فقد أبيتم إلا أبا موسى؟»

قالوا: «نعم!».

قال: «فاصنعوا ما بدا لكم!».

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين فى جيش على، لم يدع من وسعه شيئًا لتغليب حزب معاوية على حزبه، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذى يختاره نصيرًا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه. ولا طائل فى البحث عن هذا الخذلان الصريح، أكان هو

الطمع فى الملك بعد فشل على أم النقمة على الأشتر النخعى فى مكانته وبلائه، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة.. فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن استترت العلة، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذى هو فيه.

قال على يصف قسمته من الأنصار، وقسمته من النوازل والعثرات: «لو أحبنى جبل لتهافت».

وقال يصف أنصاره: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهى الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء.. ما عزَّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول.. أى دار بعد داركم تمنعون؟.. ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟.. المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل[1]. أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟.. ما دواؤكم؟.. ما طبُكم؟.. القوم رجال أمثالكم، أقولاً بغير علم؟.. وغفلة من غير ورع؟.. وطمعا فى غير حق؟..».

وهى صيحة لا تصف إلا بعض ما يعانيه من حيرة، لا مخرج له منها فى سياسة أصحابه. فإنه لم يفرغ من التحكم الذى أذعن له وهو كاره، حتى فوجئ بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم، وزعموه قبولا للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين، وهو عندهم كفر بواح، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك!

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام. ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فإن أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال، فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء. ثم يرجع الرأى إلى عمرو بن العاص فى إقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه.

(١) الأفوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر، والناصل العارى من النصل.

غير أن الدهاة من العرب، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه.

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم، فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة فى الصراع.. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور، على سنَّة الدهاة من أمثاله، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها.. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الإبطاء المريب.. فقال له وهو يرى اشتغال باله: «قد أتيتك بخبر الرجلين..».

قال معاوية: وما خبرهما؟..

قال المغيرة: «إنى خلوت بأبى موسى لأبلو ما عنده فقلت: ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء؟.. فقال: أولئك خيار الناس، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم وبطونهم من أموالهم. فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص، فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب؟.. فقال: أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا»..

ثم عقب المغيرة قائلا: «أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه..».

وقد أحس المغيرة حزره – نقط الحرف بالحرف – فى تقدير نية الرجلين، فإنهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له: «ياعمرو!.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟».

قال: «وما هو؟..»

قال: «نولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يدخل فى نفسه شىء من هذه الحروب..»

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه أنه يريد معاوية، ثم عاد يسأله: فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته؟»

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال: «إن ابنك رجل صدق، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا».

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء، وطفقا يبدأان منه ويعيدان إليه بعد كل جدال، حتى وقر فى خلد الأشعرى أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولااتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد: «..... أيها الناس، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإنى قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا»

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد: «... إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه».

فغضب أبو موسى، وصاح به: «مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث..».

فابتسم عمرو، وهو يقول: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا..».

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة.

وبان أن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين، فعاد الخلاف إلى ماكان عليه..

غير أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم.

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم «.. إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما، وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على

الشخوص من بين أظهرهم، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق».

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يئس من توبتهم، ولقيهم بالجيش، فآثر أن يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا، واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلا منهم يرضونه، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء.

قال على: «مالذى نقمتم على بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى، فهلا برئتم منى يوم الجمل؟»..

قال ابن الكواء: «لم يكن هناك تحكيم».

قال على: «يا بن الكواء ويحك.. أنا أهدى أم رسول الله ﷺ؟».

قال ابن الكواء: «بل رسول الله ﷺ».

قال على: «فما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون..»

قال: «إن ذلك احتجاج عليهم، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين، فنحن أحرى أن نشك فيك».

قال: «وإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾.

قال ابن الكواء: «ذلك أيضًا احتجاج منه عليهم». ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا: «إنك صادق فى جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين».

قال على: «ويحك يا بن الكواء.. إنى إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا»..

قال ابن الكواء: «فإن أبا موسى كان كافرًا».

قال على: «متى كفر؟.. أحين بعثته أم حين حكم؟».

قال ابن الكواء: «بل حين حكم».

قال على: «أفلا ترى أنى بعثته مسلمًا فكفر فى قولك بعد أن بعثته.. أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلا من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله[1] فدعاهم إلى غيره، هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء؟».

قال: «لا».

قال: «ويحك.. فما كان علىَّ أن ضل أبو موسى؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟».

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بندٍّ لعلى فى مجال نقاش، فكفُّوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق على فى حجته وقصده، لولا أنهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذى يجدون فى المضى مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة.. فمردوا على الشقاق، وأصروا على تكفير على وأصحابه، وأن يعاملوهم فى الحرب والسلم معاملة الكفار..

* * *

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة.. فرفع فى الساحة راية ضم إليها ألفى رجل ونادى: «من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن».

ثم قال لأصحابه: «لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم» فصاح الخوارج صيحتهم: «لا حكم إلا لله وإن كره المشركون» وهجموا هجمة رجل واحد.. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نفد صبره ووغر صدره. فما هى إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج، وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال، فأمر بهم علىٌّ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج.

* * *

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له فى كل فرصة سانحة للغلبة، وقال له على مسمع من الناس: «ياأمير المؤمنين.. نفدت

(١) وقد حدث هذا فى عهد النبى عليه السلام؛ إذ أوفد نهارًا الرحال ليهدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرًا بدينه.

نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنَّة رماحنا، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا»

وتسلل الجند من معسكرهم، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم، وأيقن على أن القوم مارقون من يده، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال..

أما معاوية فقدّ علا نجمه بين قومه، وأعانه طلاب المنافع عامدين، وأعانه الخوارج غير عامدين، فحاربوا علياَ ولم يحاربوه، وطلبوا التوبة من علىٍّ ولم يطلبوها منه، واستمر هو فى إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة. فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة، وبقى علىُّ فى أرباض الكوفة يائسًا منعزلاً عن الناس، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه، ويوجس شرا من أقرب المقربين إليه، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام، ويكفا السيف عن هذه الأمة، فلا نزاع ولا قتال..

* * *

وبقيت فى كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التى يخيل إليك، وأنت تتعقبها، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء على بنقائض الموقف كله، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله.. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة، ويفلت زميلاه فيها: معاوية، وعمرو بن العاص.

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى، وهم من غلاة الخوارج الموتورين، فتذاكروا القتلى من فريقهم، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار ـ أو أئمة الضلالة فى رأيهم ـ وهم: على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص.

فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم على بن أبى طالب»

وقال البرك: «أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان»

وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص»

وإن ضغينة الثأر لحافز أى حافز..

وإن تهوس العقيدة لمثير أى مثير

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين، يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان، وهو حافز من الغرام الظامئ لايرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم.

فإن المرء قد ينيم ثائرة الحقد، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة.. ولكنه إذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه، فهو مأسور زمامه فى يدى غيره، وليس فى يديه.

* * *

كان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج، وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا إلا أن يشفى لوعتها. قال: «وما يشفيك؟» قالت: «ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وقتل على بن أبى طالب».

قال: «أما قتل علىٍّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى..».

قالت: «بل التمس غرته.. فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها».

وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد..

فأما عمرو بن العاص، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس. فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله. فقال عمرو: أردتنى وأراد الله خارجة، وأمر بقتله..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله، وقد خرج الغداة للصلاة فوقعت الضربة على أليته.. وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل. فجزع معاوية من النار، ورضى انقطاع النسل، وهو يقول: «فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى، وأمر بالرجل فقتل لحينه»..

وأما على، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم، وهو خارج للصلاة، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم: «يابنى عبد المطلب.. لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين.. ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى..».

«انظر ياحسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة.. ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور».

* * *

وهذه خاتمة فاجعة، ننظر فى كل فرض من فروضها فلا تخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه.

فمهما يقل القائلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدا، ولا يخرج إلى المسجد بحرس، فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه إلى مكيدة واحدة.. فخرجا منها بحظين غير حظه، فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروسا، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه. ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسا، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة.

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ، ترجع بنا فى آخر الأمر إلى علل المصادفات التى لا تقبل التعليل.

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى مابعد انتهائها..

وذلك هو النسيج الإنسانى النابض الذى يتخلل حياة علىٍّ فى لحمتها وسداها، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة

النبيلة إلا وهى معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم.. وذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس فى سيرة الإمام. وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية فى شتى نواحيها: تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء. فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التى تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب. وغرام المتهوس المجنون، وأريحية القتيل الموصى بمن اعتدى عليه، وحقد المرأة وخداع الجمال، وزيغ العقيدة، واستواء الإيمان، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة..

* * *

وهذه مزية علىٍّ بين خلفاء الإسلام قاطبة.. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل..

تلك حياة حى.. وذلك مصرع شهيد..

٦ سياسته

تسرى فى صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلَّمة، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلتها الألسنة فعز عليه بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال..

كل أولئك من لغو الشعوب.. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد، ولكنها إذا لغت فشوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علىّ بن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بخدع الحرب والسياسة!

وقد شاع هذا الرأى فى عصر علىٍّ بين أصحابه، كما شاع بين أعدائه، وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة فى معظم مساعيه، فكان من الطبيعى أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة..

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى إلى الصواب..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، فى عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان فى وسع علىٍّ أن يصنع غير ما صنع؟..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هى العاقبة؟.. وهل من المحقق أنه كان يفضى بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التى صار إليها؟..

لم نعرف أحدا من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك.. مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفيه، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأى الذى سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع فى موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصح والمشورة.

وهذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ، ولم ينظروا إليها نظرة الربان فى غمرة العواصف والأمواج..

فالمآخذ التى من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية، وهى:

١ – عزل معاوية

٢ – معاملة طلحة والزبير

٣ – عزل قيس بن سعد من ولاية مصر

٤ – تسليم قتلة عثمان

٥ – قبول التحكيم

٦ – قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين.. فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع... فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه..

* * *

قيل فى مسألة معاوية إن علياً رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمى، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له: «إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد. أقرر

معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت»

فأبى وقال: «لا أداهن فى دينى، ولا أعطى الدنية فى أمرى»

قال المغيرة: «فإن كنت أبيت على فانزع من شئت واترك معاوية، فإن فى معاوية جَرأة، وهو فى أهل الشام يستمع له ولك حجة فى إثباته.. إذ كان عمر قد ولاه الشام»..

فقال على: «لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين»

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لما علم برأى المغيرة: «إنه نصحك»..

قال على: «ولِمَ نصحنى؟»

قال: «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق..

ثم مضت الأيام، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام.. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض، وكان زياد من جلسائه

فقال له الإمام: «تسير»

قال زياد: «لأى شىء؟»

قال: «تغزو الشام»

فقال زياد: «الأناة والرفق أمثل، واستشهد بقول الشاعر:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على:

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد إلى الناس وهم يسألونه: «ما وراءك؟» فأجابهم: «هو السيف ياقوم!»..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه.. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا: هل كان الإمام مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله بالشام؟..

وأن نعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع؟..

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله لسببين: أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة، وكثيرا ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب.. فكان على لايقبل هذا العذر ولا يزال يقول له: «إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه «يرفأ».. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف»

فإذا أقره ولى الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل، فبدءوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به.. بل هجموا على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة. فكيف تراهم يهدءون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وأن الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟..

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع.. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟

كلا.. على الأرجح، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق.. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول

إلى ما وراءه، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده.. فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة فى حينها.. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد.. فماذا تراه صانعا إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته إياه من دم عثمان؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل إلا رجاء..

وإذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان على مستفيدا من إقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على علىٍّ بين أنصاره. فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه أن صواب الإمام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه.. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح، فأقل ما يقال إن الصواب عنده وعندهم سواء..

* * *

والتقدير فى مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاة عثمان على الأمصار:

لأن الرأى الذى عمل به الإمام معروف، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة: كلها أغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضمانا من رأيه الذى ارتضاه..

فالرأى الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الإمام لأن «العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان

على القوى بالسلطان..» ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح فى الوقيعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر.. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة..

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزما بعد أيام قليلة، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة.

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه..

والواقع أن الإمام قد استراب بما نوياه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة!»

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم. وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أنه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشىء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين فى عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم.

* * *

وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة إلى البصرة بيائس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير، فقد كانت «العثمانية» فى مكة حزبا موفور العدد والمال.. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التى سلكها الإمام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التى قدمناها..

* * *

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر، فهى غلطة من غلطات الإمام يقل الخلاف فيها..

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفؤا لمعاوية وعمرو بن العاص فى الدهاء والمداورة، فعزله الإمام لأنه شك فيه.. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين فى السر بأمره.

وكان أصحاب علىٍّ يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه.. فعزله وهو غير واثق من التهمة، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة علىٍّ فى الحجاز..

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية.

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الإمام، فكتب إليه كلاما لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبًا لساعة الفصل بين الخصمين.. إذ كان ختام كتابه إليه: «.... أما

متابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه، حتى نرى وترى»

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال: «أما قولك إنى مالئ عليك مصر خيلا ورجلا، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام..»

وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه: «.... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم».

فتعاظم شك الإمام وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة.. فعزله واستقدمه، وتبين بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب، وأن ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم، لأنهم هزموا محمد بن أبى بكر والى مصر الجديد، وجرءوا عليه من كان يصانعه ويواليه.. غلطة لا ريب فيها..

وإن كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا، لو كان حاربهم، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة.

ولكننا نبالغ على كل حال، إذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الإمام من بعدها، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها فى حينها، كما تصلح الغلطات التى يساق إليها الساسة.. فإنما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية.. وقلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية. وقد عرف الإمام خطأه فقال لصحبه: «إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر» وأنفذ الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات فى الطريق..

* * *

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة، منها أنه مات غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل.. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته: «إن لله جنودا من العسل»..

فإن صحت الرواية، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة القوية عند معاوية.. فمما لاشك فيه أن موت الأشتر، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام، وأنه لا لوم على سياسته فى اغتياله، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من جوار عليٍّ، وقال: «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علىّ من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها..

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن، والذى حذره علىٌّ كان..

وإذا ولت الحوادث، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب..

* * *

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلا بين الإمام وخصومه، فإذا هى أقصرها جدلا من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد..

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأعفوا أنفسهم منه - وهم ولاة الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار.

وقد تحدث الإمام مرة فى أمر القود من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين.

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود: «إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم

وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم: «.. إن هذا الأمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، وإن الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى مالا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا.. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف..

غير أنهم طلبوا مالا يجاب، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها. وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة علىٍّ وهى خارجة من مكة: «ليت هذه انطبقت على هذه إن تمَّ الأمر لعلىٍّ» تشير إلى السماء والأرض.. ثم عادت إلى مكة وهى تقول: «قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه»..

فقيل لها: «ولم؟.. والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت.. ولقد كنت تقولين: اقتلوا «نعثلا» فقد كفر»

فقالت: «إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولى اليوم خير من قولى الأول»

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب

والرضا، أو الإرضاء، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

* * *

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم، فيخيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه..

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرتضونه.

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فزعة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريمه.

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى موسى الأشعرى، على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا عليه، كما فرض عليه التحكيم فى لحظة واحدة.. وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعرى أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس.. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً فى الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه. وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب الإمام، بعد مساومته التى ساومها فى حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعزّ عليهم إخفاقهم كما يعزّ عليه إخفاقه.

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين؟.. لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر إنه «تقتله الفئة الباغية» فلما قتله جند معاوية، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف قال قائل منهم: إنما قتله من جاء به إلى الحرب.. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد.. أفلا يقبلون تفسيرا مثله إذا تحول ابن العاص، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الإمام؟

فليس فى أيدى المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذى أذعن له الإمام على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره فى عقباه

* * *

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الإمام، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها.. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه.

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل.. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام وآمن لسربه وأهدأ لباله، وهو أمر مشكوك فيه.. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من أثرة، قلَّما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل.

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلى بن أبى طالب، يترك وادعا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الإسلامية فى عصره..

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء، لاعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يفىء إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا. وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ الناس به ورجعتهم إليه. وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد.. وما أعظم البون فى المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال.

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى، إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه.

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء، فيقول: «... والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس..»

أو يقول: «ولكنه لا رأى لمن لايطاع»

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم: «.. لم تكن بيعتكم إياى فلتة، وليس أمرى وأمركم واحدا.. إنى أريدكم لله، وأنتم تريدوننى لأنفسكم»

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على علىّ، فيقول: «إنه كان رجلا لا يكتم سرًّا وكنت كتوما لسرِّى، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا، وكنت أحب إلى قريش منه، فنلت ما شئت..»

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخلافة: «إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها، إلا أنها تظل ناقصة مالم نقرنها بحقيقة أخرى، وهى أن هزيمة معاوية كانت مرجحة – بل مؤكدة – لو أنه وضع فى موضع علىّ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها.

فالبلاء كله إنما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم، ولهذا كان سر علىّ يعرف وسر معاوية يكتم.. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره، وعلياً لا يطاع إلا إذا سئل عن نيَّته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه. وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى، ولا ينفذ من رويته إلا الذى ينساق إليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير.

* * *

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاة، لما طمع فى حظ أوفق من حظ علىّ فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية، وكذلك قال الإمام: «إن لبنى أمية مرودا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم».

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون من تعليل النصر والهزيمة، ولا نعدوه إلى ما وراءه.. فليس من قصدنا أن نصف علياً بقوة الدهاء وسعة الحيلة، ولكننا

قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه.

فقوام الفصل بين الطرفين، أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأى ولا قوة دهاء.. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور، وإن قامت الحوادث عائقا بينها وبين النجاح فإن الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان..

ومما لاشك فيه، أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة، وأنه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك، ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء..

فمن مشوراته الصائبة، أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه، فقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلا مجربا.. فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءًا للناس ومثابة للمسلمين».

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير: «لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تلقه كالثور عاقص ـ أى لاويًا ـ قوته يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له: «يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق.. فما عدا مما بدا؟»

ومن حزمه أنه كان يبث عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه. وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده.

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل ناعق، وإنهم «هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا».. لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنهم فانتفع بهم الناس.

فهذا قسط من الرأى الصائب، كافٍ لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة.. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلفيق أجزائها..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها.. كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية..

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء..

* * *

ونعود بعد ذلك، فنقول إنه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء.. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لابد من ملك أو خلافة..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة، ولا خليفة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية، وتهيأ الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله.

ولم يكن معاوية زاهدًا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه.

فلما جاء عصر الملك، طلب الملك والملك يطلبه..

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما».

فهو الملك، أو هو جاه الدنيا، الذى تطلع إليه من نشأته الأولى فى بيته. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به، ونجحا معا على التوافق والوفاء..

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة، وجب أن يكون علىٌّ على رأس فريق الخلافة.

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة، وبين أصحاب المبادئ والظلامات الراغبين فى التبديل والإصلاح، وجب أن يكون عليٌّ على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق.

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول، ولا اختيار فيه للمختار، وجب أن تصير خلافة عليّ إلى ما صارت إليه، كائنا ما كان حظه من الدهاء والخديعة، وكائنا ما كان طريقه الذى ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه.

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك فى صراع عليٍّ ومعاوية، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر فى هذا الصراع، وقد ظهرت فى مآزق شتى من أحرج مآزق التاريخ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا فى تأسيس الدول وقمع الثورات، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل.. ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع..

فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام فى كل خطوة من خطوات النصر، ويثقل عليه باللجاجة والعنت فى مواقف مكربة تضيق بها الصدور..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد فى هذا الباب، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج. يظهرون بالعنت فى غير موضعه ويذهبون به وراء حده، وربما بلغوا من الضرر فى معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس، على عظم الفاروق بين سلطانهم وسلطانه.

ألا يخطر على البال هنا، أن ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع فى هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية؟..

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه، ثم ولى على الفور من يقوم مقامه فى رئاسة القوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره؟.. أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها، فيسكن المشاغب، ويهاب المتطاول، ويجتمع المتفرق، ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة؟

لم يكن ذلك ببعيد.

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق، ولا بالمأمون..

فهى مجازفة ذات حدين، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا.. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب..

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدابرين. فكانت له ضربة الشجاع، ولم يكن له ضربة المغامر أو المقامر..

ولم يضرب بالسيف قط، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب وإما إلى الخسارة.. وإنما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة إيمانه، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب..

على أننا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نفرض أنه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود..

ونفرض أنه عمد إليها، فنفعته فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملناه؟ وكيف يكون المخرج بين سياسة الملك، كما يطلبها العصر، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس الإمام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه، أفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون؟

وإذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنَّة النبوة، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم؟..

فالسياسة التى اتبعها الإمام هى السياسة التى كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه، وهى السياسة التى لم يكن له محيد عنها، ولم يكن له أمل فى النجاح إن حاد عنها إلى غيرها.. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذى رأيناه، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنَّة النبوة والخلافة النبوية.

* * *

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الإمام، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه..

ومن الجور الشديد، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة، ولابد لها من شهيد..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التى نشأت من قبله، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه..

أحس بها الصديق، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذى استناموا إليه..

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء.. فضاق ذرعا بالحياة، وطفق يقول فى سنة وفاته: «اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط.. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك».

وأحس بها عثمان، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين، لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على نده وضده..

وكتب لعلىٍّ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين، فلا فى مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد، ولا فى مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره، وإنه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة، وهو الذى باء وحده بتلك النقائض والأعباء..

* * *

وقد نقدت سياسة علىٍّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة. كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفا وعشرين سنة.. فلم يخلف النبى، ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر.. كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسعي من تدبيره، فأعياه السعى والتدبير..

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع إلى العوائق التى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه، أو كانت له قدرة معقولة عليه.

فمما لاشك فيه أن الإمام أنكر إجحافا أصابه فى تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه، وأنه كان يريد أن قرابته من النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، كما قال...

ومما لاشك فيه، أن شعوره هذا طبيعى فى النفس الإنسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة، لأن تخطيه – مع هذه المزية التى ترشحه للبيعة – يشبه أن يكون قدحا فى مزاياه الأخرى، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغض من قدره، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة..

غير أن الخلافة الإسلامية. مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد. وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء، إذا تعارضت الحقوق وتشعَّبت الآراء..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان علىٍّ هى العائق الأول فى سائر الموازين، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش، وفى القبائل العربية عامة، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين. وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم، أن يجعل بيت أبى سفيان صنوا للكعبة فى أمان اللاجئين إليه، وأصهر إلى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه، وربما حسن لديه أن تئول الخلافة إلى علىٍّ بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه، ويستوى منهم القريب والبعيد.

ولم تكن الحكمة النبوية هى وحدها التى تأبى إثارة العصبيات وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجنبته غاية ما فى وسعها اجتنابه.. لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل..

وإن أحق الناس أن يفطن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله، لكان أعجب شىء أن يموت النبى عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين، أو ضرورات القضاء، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية..

فلا النصوص الصريحة، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية. مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية..

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين علىٍّ وبين الخلافة ولا قدرة له عليه، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة، وذكره الفاروق حين قال: «إن قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة»..

* * *

ويرى بعض المؤرخين، أن قريشا كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشركين، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر.. عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الإسلام، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر من قتلاهم من الكفار. وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد: «... كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه، من إظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله».

وقد علم الإمام هذا من قريش، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها، فقال: «.. ما لى ولقريش؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين.. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته.. فقل لقريش، فلتضج ضجيجها».

ولو أن قريشا وادعته فى سرها وجهرها، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم إليها، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها، فتلك هى العقبة التى لا يذللها إلا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها..

* * *

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم: أبو بكر وعمر وعثمان..

فإذا نظرت إلى عائق العصبية الذى قدمناه، فلا نرى شيئا أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح..

فليس أقرب إلى طبائع الأمور فى بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية، لاختيار الخليفة من بينها على السنَّة التى لم تتغير قط فى تواريخ العرب الأقدمين، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين.

ولم يكن الإمام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تئول إليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام.. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل. وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا فى جوار النبى بضع عشرة سنة قبل ظهور علىٍّ فى الحياة العامة، وهم يشيرون على النبى ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء..

والعائق الذى قام بين علىٍّ وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب..

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم، ولا بنى عدى، ولا بنى أمية، فى رئاسة عثمان خاصة.. كما تنفس على بنى هاشم، إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة..

* * *

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق: «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: «إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا.. وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم».

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة. فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه..

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق، وبلغ الإمام الخامسة والأربعين، وسبقت له في المشورة سوابق مأثورات.. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل. ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنّه منهم إلى أمل من الآمال في شدة الإمام وعسر حسابه..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الإنسان في زمن من الأزمان.. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم. وقيل إنه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلا موقوتا إلى عليٍّ وانحرافا موقوتا عن عثمان، فسارع إلى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

ويقضي الحق أن يقال في هذا المقام إن بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علياً وقدمت عثمان عليه، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف.. وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب..

* * *

ثم بويع الإمام بعد مقتل عثمان، فهل تحولت قريش عن جفوتها، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها؟

كلا...

بل جاءت البيعة فى المدينة. يوم خفت فيها صوت قريش، وهبطت سمعة حكامها.. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش، تنكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالغنائم والأمصار.. ويوم انقسم المجتمع الإسلامى قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينا حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم فى خلافة عثمان: قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية..

فأى القسمين كان قسم علىٍّ كائنا ما كان سعيه واجتهاده؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبى إلى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد.

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع إلى علة غير سياسة علىٍّ لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية..

وهو غير مسئول عن سنِّه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الإسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس والإحجام منذ اللحظة الأولى..

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال، والمجاملات، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه، ويؤثروه على غيره بالخلافة، أملا فى بره واطمئنانا إلى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر، أن سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وآخرًا بين قريش وقبائل العرب عامة..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله، ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره.. ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة – لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبى، ولا بعد مقتل عثمان..

فبعد النبى عليه السلام، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى الأيدى وأنشأت فى المجتمع الإسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها..

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع، إنما كان يناضل بسلاح غير موجود.. بل كان يناضل سلاحا ماضيا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح.

أما بعد مقتل عثمان، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية فى سوق المنافع الدنيوية، لأن معاوية قد أهب لها أهبته قبل عشرين سنة، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه فى بلاد وادعة بين جند مطيع.

ولو توافرت لعلىٍّ مادة هذه السياسة، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها.. فليس أقل نفعا فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين.. فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه.

وأغلب الظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه..

فقد حببته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم، ولامطمع لها فيه.. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق، ونشأت فى اليمن – وقد عهدت حكمه قديما – تلك الطائفة السبئية التى غلت فى حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس، وانتثرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التى ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال، وشذت الشام لأنها كانت فى يد معاوية، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت

فى يد طلحة والزبير، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.. فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة، وإن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا فى بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال. لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين..

فأغلب الظن – كما أسلفنا – أن عليًا كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية، ولا يكسب العصب التى ناصبته العداء. وأيقنت أنه حائل بينها وبين ماطمحت إليه من الصولة والثراء..

وهذا على تقدير المقدرين أن عليًا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة، وأنه لو اتبعها لكانت أجدى عليه..

وليست هى أجدى عليه لو اتبعها، ولا هو على اجتنابها بملوم..

وتقضى بنا هذه التقديرات جميعا إلى نتيجة واضحة نلخصها فى كلمات وجيزة. ونعتقد أنها أعدل الأقوال فى وصف تلك السياسة التى كثرت فيها مطارح النقد والدفاع..

فسياسة علىّ لم تورطه فى غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى..

وهى كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية، كان يعز عليه بلوغها فى موضعه الذى وضع فيه وعلى مجراه الذى جرى عليه..

فليست هى علة فشل منتزع، ولا علة نجاح منتزع، أو هى لا تستدعى الفشل من حيث لم يخلق، ولا تستدعى النجاح من حيث لم يسلس له قياد..

ورأينا فى سياسته فهما وعلما، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التى هى إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء..

فكان نعم الخليفة، لو صادف أوان الخلافة..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن المساومة والإسفاف..

ولكنه لم يأت فى أوان خلافة ولا فى أوان ملك موطد، فحمل أعباء النقيضين، وأخفق حيث ينبغى أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد..

* * *

٧ حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر فى إبان الفتنة الداخلية بين عليّ ومعاوية.. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذى يهددها.. وتتلخص عوامل الأمان فى وقاءين اثنين:

أحدهما، أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده..

وثانيهما، أن أعداء الإسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف، وربما صح فى الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح فى كثير من الطوارق التاريخية الكبرى، وهى أنها لن تكون شرا محضا فى جميع عواقبها، ولاتخلو من الخير على قصد من ذويها.. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار، وأوقعت فى روعهم أنهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشق عليهم جهده، وهم فى تلك الحالة من الجهد والإعياء.. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة، وألهى القوم عنه ببعض الإتاوات والنوافل.. فتراجعوا متربصين إلى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه، وهم وادعون مكفيون شر القتال.. فكان هذا الانتظار الخادع جانبا من جوانب الخير فى الفتنة الإسلامية التى فاضت يومئذ بالشرور.

وعلى هذا انقضت أيام عليٍّ، وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح، أو سياسة الدفاع، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليٍّ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها فى العصر الحديث..

* * *

ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه، بغير حاجة إلى الإطالة فى التعريف وسرد الأمثال..

لأنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية.

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين، فإذا طريق علىٍّ هى طريق الخلافة المنزهة، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض، أو هى أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناهما إلى رعاية الضعفاء..

فالناس فى الحقوق سواء..

لا محاباة ولا إجحاف بضعيف، وقد عمد إلى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء، فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنَّة المساواة، وقال: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن فى العدل سعة.. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».

وفرض الرفق بالرعية على كل وال، فلا إرهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال.

فمن وصاياه المكررة لولاته: «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنكم خزان الرعية.. ولا تحسموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم».

ومن وصاياه فى تحصيل الخراج والصدقات: «.. امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدع بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله. أرسلنى إليكم ولىُّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه إلى وليِّه؟.. فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه.. وإن أنعم لك منعم، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له.. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به.. ولاتنفرن بهيمة

ولا تفزعها، ولا تسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين، ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله.. فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله..».

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس، أن النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة، فكان يكتب إلى واليه: «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله.. فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولاصلاح لمن سواهم إلا بهم.. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر..».

أما دستوره فى الولاة والعمال، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر النخعي يقول له: «انظر فى أمور عمالك، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة وأثرة.. فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام، فإنهم أكثر أخلاقا وأصح إعراضا وأقل من المطامع إسرافا، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا.. ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم.. فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية».

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس، أو كما كان يقول فى وصية ولاته: «وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس.. فإن فى الناس عيوبا، الوالى أحق من سترها.. فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك».

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر: «لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور..

فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.. إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم.. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم»..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية، ثم صنع مثله فى عهده، على كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار..

ومن زعم غير ذلك، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره، فإنما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات..

إذ كان مما قيل مثلا إن عليًا أقام عبد الله بن عباس على البصرة، وعبيد الله ابن العباس على اليمن، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على مصر.. وهم أقرباؤه وخاصة أهله، فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات وإقصاء الآخرين عنها..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون المواطن والغايات، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الإمام، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربته قريش، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه.. بل كانوا يحاسبون على مافى أيديهم أعسر حساب، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة..

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها.. فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة:«أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة..

فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان.. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم.. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه»

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بثمانين دينارًا، وهو يرزق خمسمائة درهم.. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجا فى الدين..

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب، لما كان فى اختصاصه إياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال.. فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها، ولا يختصهم وله مندوحة عنهم، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف، وكل ما توحى إلى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك.

وقد انقسمت طريق الخلافة، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمور على عهد الإمام ولم تنقسم فى مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال وكفى.

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية..

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية، والخلافة الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس..

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة..

وكان أنصار الإمام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة، وبين بنى هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب على التعميم..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علىٍّ أو خلافته، أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة.. فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك، أيا كانت السياسة المتوخاة، وبالغا ما بلغ نصيبها من السداد والصواب..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الإنسانى فى كل شأن من شئون الحكومة، قضى به علىٌ فى عهده أو عهود الخلفاء من قبله..

فالروح الإنسانى هو قوام الحكومة الإمامية، كما ينبغى أن يكون، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية.. وهى طاقة لها ما لها من حدود..

جىء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها، فاستفتى الإمام.. فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها، وقال له: «إن كان لك سلطان عليها، فلا سلطان لك على ما فى بطنها».

وانتزع امرأة من أيدى الموكلين بإقامة الحد عليها.. وسأله عمر فقال: «أما سمعت النبى ﷺ يقول: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل!» قال: «بلى» قال: «فهذه مبتلاة بنى فلان.. فلعله أتاها وهو بها» قال عمر: «لا أدرى» قال: «وأنا لا أدرى» فترك رجمها للشك فى عقلها..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش، فمرَّت على راع فاستسقته.. فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها.. ففعلت، فشاور الناس فى رجمها، فقال على: «هذه مضطرة إلى ذلك.. فخلِّ سبيلها».

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصاص وتفسير الشريعة..

غير أنه قد حاد عن هذه السنَّة فى أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس.

وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون.. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو المعبود.. إذ لا يعذب بالنار إلا الله.

فهؤلاء المفسدون المفتونون، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التى لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة.. ولكن الإحراق بالنار صرامة لاتوجبها ضرورة العقاب، وليس فى اجتنابها خطر على الشريعة، ولا على النظام..

إنما شفيع الإمام فى هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك الضلالة، وهو مظنة الريبة فى الهوادة فيها.. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون، وقد أحرق الذين ألهوه.. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره، إلا أن يفسدوا فى الأرض أو يبدءوا بالعدوان على برىء. وفى هذا الانصاف بين مؤلهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة فى العقاب.

وكان الإمام يذكر أبدا فى حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد، حيث قال: «رأيت علياً عليه السلام خارجًا من همدان، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما.. ثم مضى فسمع صوتا: ياغوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول: «أتاك الغوث..» فإذا رجل يلازم رجلا، فقال: «ياأمير المؤمنين.. بعت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا ولا مقطوعا، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى» فقال: «أبدله» ثم قال: «بينتك على اللطمة» فأتاه بالبينة.. قال: «دونك فاقتص» قال: «إنى قد عفوت ياأمير المؤمنين» قال: «إنما أردت أن أحتاط فى حقك».. ثم ضرب الرجل تسع درات، وقال: «هذا حق السلطان».

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما يشابهه من أمثال هذا العدوان، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص.

ويقال الكثير عن مناهج الإمام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الإجمال عن التوسع فى التفصيل..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الإمامة والدعوة العالمية، أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز، وهو الحجازى سليل الحجازيين..

وقد اختار الكوفة، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات.. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة إمام، وما زالت الإمامة لاحقة بعلىٍّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام..

* * *

٨ النبى والإمام والصحابة

أحاديث النبى عليه السلام فى فضل علىٍّ ومحبته متواترة فى كتب الحديث المشهورة.. منها ما انفرد به، وهو حديث الخيمة الذى رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة، وهو متكئ على قوس عربية، وفى الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين.. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولىٌّ لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ردىء الولادة».

ومنها ما اشترك فيه هو وغيره، وهو الذى روته السيدة عائشة حيث سئلت:

«أى الناس أحب إلى رسول الله ﷺ؟.. قالت: فاطمة!.. فقيل: من الرجال؟.. قالت: زوجها.. إن كان ما علمت صواما قواما»

وقد روى حديث فى هذا المعنى، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه، فقال: «من النساء عائشة، ومن الرجال أبوها».

ولا تناقض بين الحديثين، إذ كانت السيدة عائشة هى التى تروى الحديث الأول، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه، أو كانت تروى عن أقرباء النبى من لحمه ودمه، فتقول ما تعلم عن غيرها.

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية فى فضل علىٍّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيِّه، وهى تعد بالعشرات.

وأصحاب المذاهب يختلفون فى تأويل هذه الأحاديث، وفى أسانيدها، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه.. وهو شرح طويل لايهمنا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق، أو نرجح مذهبا على مذهب.. إذ ليس فهم الإمام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه..

فمهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم، أن علياً كان من أحب الناس إلى النبى، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين.. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنسانا، كان ابن عمه الذى كفله وحماه، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه، وكان زوج ابنته العزيزة عنده، وكان بديله فى الفراش. وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ فى سنّه؟..

حب النبى لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص، لأنها حقيقة طبيعية، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف.

ومما لا خلاف فيه كذلك، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه.. بل كان يسره ويرضيه أن يحبِّبه إلى الناس، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه..

بعث رسول الله علياً فى سرية ليقبض الخمس، فاصطفى منه سبية، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله. وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه، وظن أصحابه أنه لم يسمعه.. فتناوبوا الحديث واحدًا بعد واحد فى معنى كلامه. فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال: «ما تريدون من على؟.. ماتريدون من على؟.. ما تريدون من على؟.. علىٌ منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى: «أتبغض عليًا؟» قال: «نعم!» قال: «لا تبغضه، فإن له فى الخمس أكثر من ذلك، أى أكثر من السبية التى اصطفاها.. لا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حبا».

* * *

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم، فأبى.. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد، فقال: «يارسول الله.. لقينا من علىٍّ من الغلظة وسوء

الصحبة والتضييق..» ومضى يعدد ما لقيه، حتى إذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه، وهتف به: «ياسعد بن مالك بن الشهيد، بعض قولك لأخيك على؟ فوالله لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله»

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم: «يأيها الناس.. لا تشكوا علياً، فوالله إنه لجيش فى ذات الله»..

ويلوح لنا أن النبى عليه السلام كان يحب علياً ويحببه إلى الناس، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحبا.. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه، ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا إلى الملك والدولة فى بنى هاشم، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة.. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة..

فالتزم فى التمهيد لعلىّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم والوكالة، أرسله فى سرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة. وبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك.. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام، ويكلهم فى شأنه إلى ما ارتضوه، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل، وتنبئ عنها الحوادث بين النبى وابن عمه العظيم..

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هى وحدها العلاقة الممكنة المأمولة، وكل ما عداها فهو بعيد من الإمكان بعده من الأمان.

فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم إليه..

وكل ماعدا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة..

وليس بالممكن أن يحبهما له، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة..

وإذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لايجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع..

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره. إنهم لا يريدون ذلك مخلصين، وإنهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد حين..

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس بالمعقول..

وإنما الممكن والمعقول هو الذى كان، وهو الحب والإيثار والتمهيد لأوانه، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان.

* * *

أما العلاقة بين علىٍّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء، فهى علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يثوب إلى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء.. بل ليس فى أخباره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس، وإن دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون.

فمن المعلوم أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه، وأنه لم يزل مدفوعا عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى. واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه. قال: «ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا[1] عليهم.. فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن بغيره فالأنصار على دعواهم».

(١) فلجوا: أى انتصروا عليهم.

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصديق، ثم بويع بها الفاروق، ثم بويع بها عثمان..

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهد الصديق، فباعدت الفرجة بين القلوب، وأطالت العزلة بين الأصحاب.. وخلاصة هذه القضية، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدك وسهم خيبر، فذكر لهم الصديق حديث النبى عن إرث الأنبياء، ونصه فى روايته: «نحن معاشر الأنبياء، لا نورث.. ما تركناه فهو صدقة.. إنما يأكل آل محمد من هذا المال»

فغضبت فاطمة، ولم تكلِّمه حتى ماتت. ودفنها علىٌّ ليلا، ولم يؤذن بها أبا بكر.. وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها. ثم أرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد.. وتلقاه وعنده بنو هاشم، فقال: «إنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا».

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره، نرجع إلى سيرته وأحاديثه.. فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه.. بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يتجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه..!

* * *

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم.. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم. وفى ذلك يقول من خطاب إلى معاوية: «ذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه فى حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه. فإنه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان..

ويخطئ جدا من يتخذ فتواه فى مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه فى أبنائه.. فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاما لأبيه، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه. فلما استفتى فى هذه القضية افتى بالقصاص منه، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان، فأعفاه من جريرة عمله.. لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه.

وإنك لن تجد إنسانا أعرف بالعهد، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومة الحرب، ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدى، ويعود بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء..

فما حارب علىٌّ عدوا له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستنجد بالصداقة الأولى فيها على العداوة الحاضرة..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل، وهما ملحان فى حربه وإنكار بيعته..

فخرج حاسرا لا يحتمى بدرع ولا سلاح، ونادى:

يازبير، اخرج إلى.. فخرج إليه شاكا فى السلاح، وسمعت السيدة عائشة فصاحت: واحرباه!.. إذ كان خصم علىٍّ مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل علىٌّ بالزبير اعتنقا، وعاد على يسأله: «ويحك يازبير ما الذى أخرجك؟..»

قال: «دم عثمان».

قال: «قتل الله أولانا بدم عثمان»

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله، ومنها مقالة النبى: «والله ستقاتله وأنت له ظالم».

فاستغفر الزبير وقال: «لو ذكرتها ما خرجت»

* * *

ولما وقف علىٌّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: «عزيز علىَّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء» وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

والمودة عند فارس كعلىٍّ عهد محفوظ وموثق مذكور، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو ألفة شعور.

ويخيل إلينا أنه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم ويحبونه، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنَّة العهود وديدن الفروسية، فلم تزل بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح مغمد أو سلاح مشهور.

ومثل علىٍّ لا يرزق صداقة الألفاء، لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة.

فهو شجاع، عالم، بليغ، ذكى، موصول النسب بأعرق الأرومات. فإن لم يحسد هذا، فمن يحسد؟..

وإن حسد، فما الذى يفل من غرب حاسديه؟.. وما الذى يفىء بهم إلى القصد فى عدائه والتأليب عليه؟..

إنهم يستبعدون يومه فى الإمارة والسلطان، وإذا استقربوا يومه فى الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق، فنصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذى لارجاء له فى هوادة من حاسديه، وليس أحقد من النّاس على صاحب عظمة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه، وبليته بهم أكبر وأدعى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم إلى الختل والروغان.. وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له

ذنب العظمة التى لا تحميها حماية من طمع أو نكاية، أو كما قال الحكيم الغربى: «إن نسى أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب».

* * *

وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلها وأنصارها..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة، كانت علاقة الزمالة التى ينوب فيها الواجب مناب الألفة..

والعلاقة بينه وبين الخصوم، كانت علاقة حسد غير مكفوف، وبغض غير مكتوم..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه، وإن قاربه أناس معجبين، وباعده أناس نافرين..

وتلك أيضا آية الشهيد..

* * *

٩ ثقافته

ألسنة الخلق أقلام الحق..

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت، وهى صدق فى كثير من الأحيان..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم.. فنقبله كرامة له كما نقبل السمين والغث أحيانا من وقار المشيب، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس، ثم نعرضه اتفاقا على العلم والقياس.. فإذا به قد احتمل من النقد العسير ماليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء، وإذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق..

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذى اختص به علىٌّ بين جميع الخلفاء الراشدين، والذى يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه..

وَلِمَ وليس هو بفرد فى الإمامة بجملة معانيها؟..

ألم يكن الصديق إماما كعلى؟ ألم يكن الفاروق إماما كعلى؟.. ألم يكن عثمان إماما كعلى؟.. ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة؟..

بلى كانوا أئمة مثله، وسبقوه فى الإمامة..

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك. ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشىء غيرها.. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس.

وذاك هو عليٌّ بن أبى طالب، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة.. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة فى الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف..

* * *

وخاصة أخرى من خواص الإمامة، ينفرد بها عليٌّ ولا يجاريه فيها إمام غيره، وهى اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت فى صدر الإسلام. فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه. وندرت فرقة فى الإسلام لم يكن عليٌّ معلما لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها، تقول فيه وترد على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة.. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول..

أما الفرق التى جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنَّة، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير.

هنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفانين، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة، كالباطنية على اختلافها.. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء، وهم طرف مقطوع أو موصول، من بعض تلك الأصول..

فالإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام!..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته، وكثير من معارض حياته، وطوارئ أوقاته..

وكانت له فى الإمامة آية أخرى من هذه الآيات..

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم فى الحياة، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى إقبالها وإدبارها، كما قال الإمام رضى الله عنه: «إنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره».

وكذلك اتفق للإمام فى صفة الإمامة، كما اتفق له فى معظم الصفات..

فقلَّ أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقلَّ أن تحدث الناس بفصل لم ينحلوه إياه، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه..

ونحلوه علما سموه علم «الجفر» وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذى يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان.

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف، ولايعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق.

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأنا، ألا تصح نسبته إليه...!

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه.. كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته فى عصره، وبعد عصره.

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل: «من أشعر الناس؟» قال: «إن القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها.. فإن كان ولابد فالملك الضليل».

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب. فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب.

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجادة فى شعره، والنبى عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعلىٍّ فى هجاء المشركين فقال: «ليس بذاك».. وأحالهم إلى حسان بن ثابت، وندب له من يبصره بمثالب القوم..

وكل شعره الذى رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير ... وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة ... لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات:

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها ... فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طرا ... صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا ... فمن ذا يدعى يوما كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم، ولم ينسب إليه شعر.. صح أو لم يصح، أجود مما قدمناه. وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء..

* * *

أما كتاب الجفر أو علم الجفر، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع ما نحلوه وأضافوا إليه.. فمثل علىٍّ فى تقواه وفضله، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه، وليس هو مما يليق بورعه ولاذكائه. وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها، هى من مدخول الكلام عليه.. ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل..

ولا نجزم مثل هذا الجزم فى أمر المقامات التى خلت من بعض الحروف، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من أزياج النجوم، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير.

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة: «ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك إلى قيهلى حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها بحماطة حلجلانك»

أى «ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها فى سواد قلبك»

فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين.

ومثل هذا، ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال: «ما تر بعلبنت قط» أى ماشربت اللبن يوم الأربعاء، و «ما تسبتسمكت قط» أى ما أكلت السمك يوم السبت «وما تسرولقمت قط» أى مالبست السراويل قائما.. إلى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالإمام فى صدر الإسلام.

غير أننا نسقطها جميعا، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين الإمام فى حساب الثقافة.. بل نحسبها فضلا – إن شئنا – ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين..

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الإسلامى، والقضاء الإسلامى، والفقه الإسلامى، وعلم النحو العربى، وفن الكتابة العربى.. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الإسلامية فى جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها فى الصدر الأول من الإسلام..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور..

ففى كتاب نهج البلاغة، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد.

وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته إلى الإمام أو فى جواز نسبته إليه، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام فى مضمار علم الكلام، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات. وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق فى كماله، ومن أمثلته قوله: «الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان، ولااستعانة على من شاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضد منافر، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون - أى ضارعون - لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ماذرأ، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم وأمر مبرم..».

أما القضاء والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة.. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة، قضية ولا أبا حسن لها: لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح..

وفى أخباره، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد فى حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد.. فقال لها: لعله ترك زوجة وابنتين وأمًا واثنى عشر أخا وأنت؟.. فكان كما قال.

وسئل يوما فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعا. وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة..

وفى هذه الإجابات، دليل على الذكاء وسرعة البديهة.. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب..

وإذا قيل فى قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه، صح أن يقال فى علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهما فى إنشاء هذا العلم من سهمه. وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلى شكا إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له: اكتب ما أملى عليك، ثم أملاه أصولا منها: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.. وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر.. وإنما تتفاوت العلماء فى معرفة ماليس بظاهر ولا مضمر.. يعنى اسم الإشارة على قول بعض النحاة، ثم قال لأبى الأسود: انح هذا النحو ياأبا الأسود.. فعرف العلم باسم النحو من يومها.

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية، ولاسيما السريانية واليونانية.. ولكن الروايات العربية لاتنتهى بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام، وهم هنالك غير قليل، ولاسيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية.

وليس الإمام علىٌّ أول من كتب الرسائل، وألقى العظات، وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الإسلامية..

ولكنه ولاريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب.. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لاصياغة منشئين، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولايقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الإمام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع، هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفنى فى اللغة العربية، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية.. فديوانه الذى سمى «نهج البلاغة» أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحدًا غير الإمام، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام..

على أننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا - بل توجب علينا - أن نسأل: كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان؟

والسؤال لابد منه، ولا نظن قارئا من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه.

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك..

فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين..

لكن البداوة لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور.

وحسبنا من أمثلة ذلك، مثال واحد فى معسكر الإمام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودى ابن زنجية مولود فى بلاد اليمن، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود، وقول غيرهم بظهور الإله الذى يتقمص جسم إنسان، وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمنى من أهل الجزيرة، إذا تخيلنا أن الجزيرة فى حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى إسرائيل، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية، أو طريق المحاكاة الاجتماعية، أو طريق الدراسة والسماع..

وقد كانت عاصمة الإمام فى الكوفة.. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة فى العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون فى كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء فى سيرة عمر بن الخطاب، ومنهم من كان ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم، وحذر بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة، فقال له: «أتزعم أنك تهدى إلى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء؟.. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه»..

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة، قائلاً: «إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر.. فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن. والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر فى النار!».

وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة.. يتأمل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف، ممن يلقاه، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه.. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الإسلام على تلك الأيام.. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ماقد فهمه الإمام، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام..

* * *

على أن هذه الفنون من الثقافة – أو جلتها – إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها.

فحصة الإمام من علم النحو ـ مثلاً ـ عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه..

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر.. وهى فى ابتدائها أصعب جدا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها..

أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن، فإذا هو عظيم فى جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التى قلنا آنفا إنها تسجل له فى ثقافة الأمم عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور.

فالكلم الجوامع التى رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة.

وقد قال النبى عليه السلام: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء...

فهى من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان ابن داود.

ويزيد عليها أنها أبدع فى التعبير، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال، كقوله مثلا: «نفس المرء خطاه إلى أجله».. أو قوله: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة».. أو قوله: «المرء مخبوء تحت لسانه» أو قوله: «الحلم عشيرة».. أو قوله: «من لان عوده كثفت أغصانه» أو قوله: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التى تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم: صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو جودة الصناعة..

وبعض أقواله ينضح بدلائل «الشخصية» التى تلازم صاحب الفن الأصيل، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه، كما قال: «صواب الرأى بالدول. يقبل بإقبالها ويذهب بذهابها» أو كما قال: «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار».. أو كما قال: «شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه».. أو كما قال: «إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه».. أو كما قال: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»..

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها، وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله: «كل معدود منقض وكل متوقع آت» أو قوله: «إذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو قوله: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه».. أو قوله: «من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره.. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله: «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».. أو قوله: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله: «العاقل يضع الشىء مواضعه» أو قوله: الصبر صبران: «صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» أو قوله: «من ملك استأثر» أو قوله: «الناس أعداء ما جهلوا»... أو قوله: «القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة»..

* * *

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة.. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره، قالوا له يشيرون إلى أعدائه: «ياأمير المؤمنين نحن نكفيكهم» فقال: «ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم؟.. إن كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف رعاتها، وإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى، كأننى المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة»

ورثى محمد بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدى أصحاب معاوية فقال: «إن حزننا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضا ونقصنا حبيبا».

فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير.. فهو ولاشك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة، وفصل الخطاب.

وقد أخطأ «موير» Moyer المؤرخ الإنجليزى حين قال: إن علياً حكيم كسليمان، وهو مثله حكمته لغيره.. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة، فإن «موير» أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه. ولاشك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس. أما أنه ينتفع بحكمته، فالطبيب لايقدح فى علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه.. فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء.

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح، قد نسب إلى قالة من الأوائل غير الإمام رضى الله عنه، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقرية الإمام.. فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه، وإن طابع هذا الأسلوب شائع فى بعض الكتاب لاتقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير. فنحن لانخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حينا، وتنقطع حينا، كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد.. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تباين ثقافة الإمام،

أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه..

ولا يتم القول فى ثقافة الإمام علىّ رضى الله عنه، مالم نتممه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة..

فجملة ما يقال فى هذا الصدد، أن فن الإمام العسكرى هو فن البطل المغوار يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت فى عضده.. ومن حيله المشهورة فى توهين عزم عدوه، أنه أمر بعقر الجمل فى الوقعة المعروفة باسمه، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته..

وهذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش..

ولم يرد لنا من أنباء الإمام فى هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار..

نعم.. إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها فى وقعة صفّين على التخصيص..

وكانت له وصاياه المحفوظة فى تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد، ومنها قوله: «إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم من قبل الأشراف وسفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردى، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعا وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة – أى محيطة بكم – ولا تذوقوا النوم إلا غرارًا أو مضمضة»..

ومنها قوله: «ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا» ومنها قوله للولاة: «إني سيرت جنودا هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لايجد عنها مذهبا إلى شعبه، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم..»

وهذه وما هو من قبيلها، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين، لم تكن الوقعة كلها إلا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة.. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف.

* * *

وخلاصة ذلك كله، أن ثقافة الإمام هى ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام..

وإنها هى ثقافة الفارس المجاهد فى سبيل الله، يداول بين القلم والسيف، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه.. لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله..

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنياه، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه..

١٠ فــى بيتــه

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها «شر كلها.. وشر ما فيها أنه لابد منها»..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجل وتحمد منه.. «فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال.. الزهو، والجبن، والبخل.. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شىء يعرض لها».....

والإمام صائر إلى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه، وهما طريق الحكيم الذى ينظر إليها على سنَّة الحكمة القديمة، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنَّة العبادة فى جميع العصور.. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها.. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية. ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين، حيث يقول:

«لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالفهر – أى الحجر – أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده..»،

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية، كما يظهر من غير حادث واحد.. ومن ذلك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه.. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من أجله، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعها: «اعزبوا عن النساء ما استطعتم» ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها..

غير أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها

كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها.

كان جالسا فى أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرماها القوم بأبصارهم.. فقال رضى الله عنه: «إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هياجها.. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا مس أهله، فإنما هى امرأة كامرأة».

وعلى الجملة، يمكن أن يقال إن آراء الإمام فى المرأة هى خلاصة الحكمة القديمة كلها فى شأن النساء..

فهن شر لابد منه باتفاق آراء الأقدمين، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بنى إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام.

لأنهم كانوا جميعا يمزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير عامدة، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكنتها أو على الرغم منها، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير إلا فى الأزمنة الحديثة التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس «الحرية الشخصية».. فحاسبت المرأة بما تجنيه، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جناياتها.

فمن السهو عن الحقيقة، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على نصيبهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية.. لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعا من الأشقياء المعذبين فى بيوتهم، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات.

وليس من اللازم فى حياة الإمام خاصة، أن يستمد آراءه فى المرأة من حياته البيتية.. فقد كانت تجاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الإمام علىٍّ وللمرأة يد فى القضاء عليها، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى:

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علىٍّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علىٍّ وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج فى زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله..

عاش مع فاطمة رضى الله عنهما، لا يقرن بها زوجة أخرى.. حتى ماتت بعد موت النبى عليه السلام بستة أشهر.. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها، فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غيرة شديدة، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة: «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد علىّ بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم.. فإنها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها»

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها، فأحجم عن مبايعة أبى بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات، وهجره كما هجرته مدة حياتها. وقد ولدت له أشهر بنيه وبناته: الحسن، والحسين ومحسن، وأم كلثوم، وزينب، وماتت ولم تبلغ الثلاثين.

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عدهم المؤرخون، ويؤخذ من إحصائهم فى «الرياض النضرة» للمحب الطبرى أنه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية، بقى منهم بعده كثيرون.

وكان على ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أبا سمحا يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام.

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له: «قد أمرتك فعصيتنى، فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فيها» فسأله: «وما الذى أمرتنى فعصيتك؟» قال: «أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر.. فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت.. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحا.. فإن كان الفساد كان على يدى غيرك، فعصيتنى فى ذلك كله!»..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه، وجعل يقول له: «أى بنى!.. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر،

وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام.. وأما قولك: اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى؟.. ومن تريدنى؟.. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال: دباب دباب.. ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج.. وإذا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعنينى، فمن ينظر فيه؟.. فكف عنك أى بنى».

وهذه معاملة «أخوة» تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا ينقضها أنه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان.. فتلك سورة الغضب فى موقف من أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال..

وكان رضى الله عنه، يزهيه أن يحيط به أبناؤه فى محافل الروع ومشاهد الزخرف.. فيخرج إليها وهم حافون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان..

واشتهر بالعطف على صغارهم، كما اشتهر بمودة كبارهم.. فكان أحب شىء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه: من أخوالك؟.. فتجيب: «وه.. وه» محاكاة لعواء الكلاب..

وكان يقول: «إن للوالد على الولد حقا، وإن للولد على الوالد حقا.. فحق الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء إلا فى معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن»..

ومن إحسان التسمية، أنه همَّ بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته، لولا أن رسول الله سماه الحسن، وهو أحسن.. فجرى على هذا الاختيار فى تسمية أخويه الحسين والمحسن. وأتم حق أبنائه فى إحسان أسمائهم، فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء: أبى بكر، وعمر، وعثمان.

أما معيشته فى بيته بين زوجاته وأبنائه، فمعيشة الزهد والكفاف.. وأوجز ما يقال فيها إنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه، وأن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين.. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا.. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه..

صورة مجملة

من كلمات الإمام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول: «يادنيا غرى غيرى.. غرى غيرى!».

وإنها لأكثر من كلمة، وأكثر من دعاء..

إنها لسان قدر، وعنوان حياة..

فقد خلق الإمام، وفى كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا، على ضرب من ضروب الاجتراء.

خلق شجاعا بالغا فى الشجاعة، وزاهدا عظيم الزهد، ودارسا محبا للحقيقة الدينية يتحرًاها حيث اهتدى إليها..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ، كما عرف بالإقبال على الدنيا؟..

صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها..

هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذى أشرجت عليه، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها

وأقبل الناس على الدنيا، بل هرولوا إلى الدنيا..

وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها، يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها.. يصد ماذا؟..

يصد الطوفان، وهو مندفع من وراء السدود..

يصد الطبيعة الإنسانية، وهى منطلقة من عقال التقوى..

يصد ما لا سبيل إلى صده بحال..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره.. فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه..

فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة، ولا حيلة له فى اجتنابها..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا، وقد غرت حوله كل إنسان.. فهو شهيد، شهيد، شهيد..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام..

وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس، لأنها صورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله، أو صورة الشهيد..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبها غالب..

وقد كان له رأى عالم، وفطنة حكيم، ومشورة مدبر.. ولكننا إذا قلنا إنه أخفق فى العمل لأنه لم يغلب القدر، فذلك تكليف بما لا يطاق.

وإنما نقول إنه أخفق فى العمل ونمسك، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق..

* * *

وحق لا شك فيه أنه أخفق حيث يشرفه إخفاقه، وحيث يخفق الآخرون لونصبتهم الأقدار فى مثل مكانه.

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ.

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده، ولكنه لم يطلب إليه ذلك... ولا رأى من الحكمة أن يطلبه إليه. قال ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة: «اذهب إلى رسول الله، فسله فيمن يكون هذا الأمر.. فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا؟.. قال: «والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا.. والله لا أسألها رسول الله أبدا»..

آمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق. فلما سألوه: «أنبايع الحسن؟» قال: «لاآمركم ولا أنهاكم» فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه، لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه، على حكم سواء..

* * *

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام..

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة، وضرب كما علمنا فى المسجد.. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية!..

* * *

فهرس الكتاب